العبيدي

حبل الاعتصام

297.09
U12hA

حبل الاعتصام

ووجوب الخلافة في دين الاسلام

تأليف

السيد حبيب العبيدي

الموصلي

وهي رسالة دينية علمية اجتماعية سياسية غرضها الوحيد توحيد
الكلمة من اجل كلمة التوحيد رمًا للصدع ولمّ للشتات ، احياء
لمجد القرآن ومن انزل عليه القرآن ، خدمة
للدين الحنيف وابنائه ، تضمن للمسلمين طيب الحياة
في الدنيا والفوز في الآخرة اذا تمسكوا بعروتها الوثقى
وساروا على طريقتها المثلى واعتصموا
بحبل الله المتين

بِحَبْلِ اللهِ إعْتَصِمُوا جَمِيعاً ... وَلَا تَتَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأَنَامِ
فَإِنَّ اللهَ يَعْصِمُكُمْ إِذَا مَا ... تَمَسَّكْتُمْ بِحَبْلِ الْاِعْتِصَامِ

في المطبعة العلمية في بيروت ١٣٢٤ هـ ١٩١٦ م

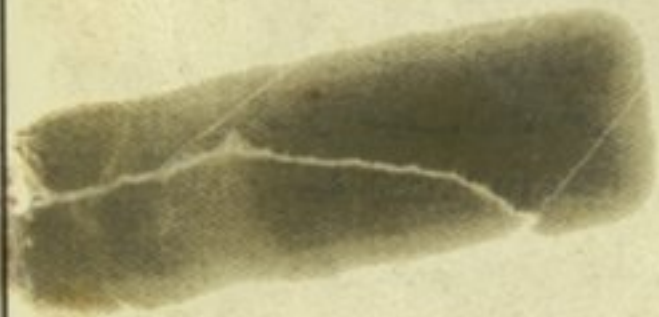

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن ابدع الاكوان بقدرته ، وكرّم بني آدم في فطرته ، ثم اتخذ منهم خلائف في الارض ، وانزل الشرائع ونصب الموازين القسط ليوم العرض، فان اعطى ففضله ، وان منع فبعدله ، بيده مقاليد الامور واليه المرجع والمآب ؛ ثم صلاةً وسلاماً عَلَى صفوة رسله وخاتم انبيائه سيدنا ومولانا « محمد » المبعوث بالحجة البيضاء، والحنيفة السمحاء ، حتى تبلّج به صبح الهداية ، وانجلى ليل الغواية، وقامت به الحجة ، واتضحت المحجة ،وسحت سحائب فيضه العميم، وهدى الله به الناس الى الصراط المستقيم ، فصلى الله عليه وعَلَى آله الاطهار ، وصحبه الاخيار الذين استرشدوا برشده ، وخلفوه من بعده ، وعلَى الذين اتبعوهم باحسان الى يوم الدين ،هادين مهديين ،

اولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه واولئك هم المفلحون

اما بعد : فهذه رسالة دعاني اليهـا داعي الحق واملاها عليّ لسان الحقيقة ثم اضطرني الى تسطيرهـا الواجب ؛ ومن كان الحق شاهده والحقيقة رائده والواجب قائده فحريٌّ ان تسمع صيحته وتلبى دعوته

بل اقول : انها دعوة الله في كتابه المجيد وصيحة النبيّ وصحبه والفقه وحزبه وعلماء الملة وسادتها وامراء الامة وقادتها ، ثم صوت الوجوب وهو خاص لا يحتمل البيان ونداء المصلحة وهي بارزة للعيان

فالله اسئل وبنبيه اتوسل ان يبلغ الصوت حيث يفكّ عن عقولٍ عقالها ويفتح من قلوبٍ اقفالها ويكشف عن ابصار غشاوة وعن افئدةٍ قسوة وغباوة ثم لا يدع في الآذان وقرا « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى ..... »

وقد سميتها « حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الاسلام » ليوافق الاسم مسماه ويطابق اللفظ معناه . وفيها الكفاءة ان شاء الله لتوحيد كلمة الموحدين ولمّ شعث المسلمين اذا ما ارادوا ان يعتصموا بحبل الله . ورتبتها عَلَى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ، والمقدمة تدور عَلَى قطبين

القطب الاول : في سبب تأليف هذه الرسالة وبيان حال المسلمين اجمالاً

القطب الثاني : في الاتحاد الاسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال

الفصل الاول : في منشأ الخلافة الاسلامية ويشتمل على اربع تمهيدات ومقصود

التمهيد الاول : في ان انبياء الله خلفائه في الارض

» الثاني : في اثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

» الثالث : في تحقيق معنى النسخ وان شريعته «ص» ناسخة لما تقدمها من الشرائع

» الرابع : في انه «ص» خاتم الانبياء وان في شريعته الكفاءة لذلك

المقصود : في ان الخلافة الاسلامية خلف النبوة بل النبوّات وانها واجبة قبل كل واجب ديني

الفصل الثاني : في ان الخلافة الاسلامية قائمة بالدولة العثمانية

الفصل الثالث : في ان دولة الخلافة الاسلامية اذا زالت بزوال الدولة العثمانية فليس في الامكان قيام اخرى مكانها

الخاتمة : في ان الانكليز اشد الامم عداوةً للاسلام والمسلمين

ولما كمل بدرها ، وانتظم درها ، وأُعيد سبكها ، وجرت ثانية فلكها ، فبرزت كالورقاء من وكرها ، والعذراء من خدرها ؛ التمست لها خير سماء تكون مظهر ابدارها ، ومطلع انوارها ، ثم ابهى جيد تزدهي عليه فرائدها ، وتعم به فوائدها ؛ فزففتها الى كفوٍ كريم وبطل عظيم ، جديرٍ ان يكون ابا عذرتها ، ورب بجدتها ؛ بل واسطة عقدها وحامل لواء حمدها . كيف لا وهو من عُرف بقوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، وعلو الهمة ، والمفاداة في سبيل الامة ، توحيداً لكلمتها ، وتأديباً لجامعتها ، وتثبيتاً لسلامتها ، وتشييداً لعرش خلافتها . لمَّا لشعث المسلمين ، وتعزيزاً لامر الملة والدين ، قد حصر في ذلك آماله ، وقصر عليه اعماله ؛ حتى انه يتشوق الى المنيّة ، في سبيل تلك الامنيَّة . واني لاشهد ، يوم انشد : اني سمعت من فيه يارك الله للامة فيه ، — في عرض حديث بيننا — انه لا يحبُّ ان يعمر كثيراً ، وانما له غاية واحدة في الحياة الدنيا يسعى اليها ، ثم يرحب بالموت — لا فجع الله الامة به — يوم يحصل عليها ؛ الا وهي : ان يرى الموحدين متحدين ، وبحبل الله جميعاً معتصمين ، قد جمعتهم كلمة الدين ؛ فاذا كلاهما — الدين و بنوه — في شأن رفيع ، وعز منيع . ولقد كان والله لسان حاله ، انطق من لسان مقاله ، اذ بدت خطوط التأثر على قسمات وجهه الكريم فكأنها سطور ،

خطت بمداد من نور ، وكلمات يقين ، في صحيفة مؤمن أُوتي كتابه باليمين

منذ تلك الساعة قبرت اليأس واهلت عليه التراب، وصافحت الامل ودخلت جنة نعيمه من كل باب ؛ قلت : ان امة يكون بين اولياء امورها من يحمل بين جوانحه مثل هذه الاحساسات المقدسة والعواطف الفاضلة والمدارك السامية انها لجديرة بالحياة ؛ فاهلاً بالامل يمشي الى جانبه النور ، ولا مرحباً باليأس يتدفق من خلاله الظلام

لكأني بك وقد شاقتك الذات عَلَى ذكرى الصفات وان لم نحط بهنَّ بياناً « والاذن تعشق قبل العين احياناً » فنقول :

انهُ بطل الاتحاد الاسلامي وحامل لوائه وواسطة عقده النظيم وكوكب رشده اللامع في سمائه ، من عبقت بنشر محامده المحافل والمجامع ، وعشقت صور مآثره ومفاخره العيون والمسامع ، دولة الوزير الخطير ، والمجاهد الكبير « احمد جمال باشا » ناظر البحرية والقائد العام للفيلق الرابع ، متع الله الامة بطول بقائه ، ومتعه بدوام اللطف به والرحمة له والاخذ بيده في سره واخفائه ، ولا زالت باسمةً رغائبه ، منصورةً كتائبه ، باهرةً فعائله ، زاهرةً فضائله ، ساطعاً كوكب اقباله ، مبتسماً ثغر آماله ، في ظل الخلافة

العظمى وتحت راية الهلال ، ما اسودّت به ايام عدوّه البيض وابيضّت به للامة سود الليال

زففت الى دولته هذه الرسالة ليكون واسطة اهدائها الى العالم الاسلامي رفعاً لقدرها ، وتتميماً لامرها ، خدمةً لاخواني المسلمين عامة ، ولدولته خاصة ، اعترافاً لعظماء الامة بمآثرها ، وتنسيباً بين الامور ونظائرها . وما اجري الا عَلَى الله به اعتصم ، عليه اتوكل ، اليه انيب .

المقدمة

وهي تدور على قطبين

القطب الاول

﴿ في سبب تأليف هذه الرسالة وبيان حال المسلمين اجمالاً ﴾

الحياة ادوار واطوار ، ومظهر كليهما الهيآت الاجتماعية من الامم والشعوب ، وفي خلال ذلك يجري حكمه « قانون التكامل » الذي يقضي بالانتقال من حال الى احسن لمن قدر الادوار قدرها وسار مع تطورات الحياة عَلَى نهج مستقيم . ثم ليس بين دفتيْ التاريخ قرن بلغ من فرط الرقي في معارج الحياة ما بلغه القرن الرابع عشر للهجرة كما هو معلوم حتى لدى الجاهلين ؛ فامةٌ اغفلت حظها من ذاك القانون — قانون التكامل — في مثل هذا القرن — قرن الرقي الباهر — انها لمنكودة الطالع وانها لجديرة ان لا تعدّ في الاحياء

سنة الله في خلقه ان يدفع بعضهم ببعض رفعاً لمنار الحق وتهذيباً لحواشي البشرية : تذكيراً للمقصرين من ابنائها وتخفيفاً من غلواء المعتدين . وهذا اكبر مضمار لتطوُّر الامم والشعوب ، فمنهم

السابق ، ومنهم اللاحق ، ثم ثالث يذهب ضحيةً تحت اقدامهما الا وهو العاجز الضعيف

تلك حقيقة تتجلّى في كل سطر من تاريخ حياة الامم ، لايكاد ينكرها من له ادنى مسكة . وما عَلَى من اراد تحقيقها عياناً الاّ ان ينظر الى المسلمين وما صاروا اليه في القرون الاخيرة ، يقلّب في ذلك طرف الناقد البصير :

ثلاثمائة وخمسون مليوناً متدهورون في قعر مهواة مظلم ، نهبى المطامع وضحايا الاهواء . قصروا في المضمار وسبقت الامم ، فكانت العقبى ان وطئت سنابكُ الذين سبقوا اعناقَ المقصرين

انكد الامم حظاً امة لا تخط اقدارها بيدهـا ، واولئك هم المسلمون : تقاسمتهم الامم واستعبدتهم الشعوب ثم تحكمت فيهم الاهواء ، فما كان من الامر الا ان سعد قوي بشقاء الضعيف

هـذه بلادهم قضي عليها الاستعمار شيئاً فشيئاً . ومـا مثل المستعمرات الا مثل السوائم : مسخّرات ليس لها من الامر شيء ، وانما هي العوبة الراعي ومفازة اوطاره ، خيرها له وشرها لنفسها وان هذا لبلاء عظيم

عدد كبير وعيش حقير : ترى الحكومة الهولاندية تحكم ثلاثين مليوناً من المسلمين وهي لا يتجاوز عددها ستة ملايين . ترى

دولة بريطانيا تستعبد مائة وعشرين مليوناً منهم والامة الانكليزية لا يتجاوز عددها الاربعين . ثم في روسيا ثلاثون مليون مسلم يعانون الاهوال من دبِّ الشمال ، وفي فرنسا ما يقرب من اولئك يتجرعون كأس الذل امام كبر الطاووس . وكذلك البقية الباقية في مشارق الارض ومغاربها : في كل فجٍّ سربٌ من ذاك القطا ضل سبيل هداه

عقد منفرط ولؤلؤ منثور ، فيا خيبة الامل اذا لم ينظمه سلك ، ثم يا طول الحسرة اذا ظل الشمل رهن الشتات

عَلَى ان فاجعتهم لم تكُ مقصورة عَلَى تخبطهم في اغلال الاسر بل وراء ذلك ويلات وهنات فما شئت فقل : من حقوق مغصوبة وحرية مسلوبة وجانب مذال وكرامة لم تحفظ حتى انهم يرهقون في دينهم ارهاقاً مما لا يصبر عليه الا ثالث « الاذلّين »[1] وليس هذا محل تفصيله

ثم الطامة الكبرى انهم في مثل هـذا الدور من تطور الامم — دور التناهي في الرقي والتباهي بشرف الاستقلال ثم انتباه الافكار

«١» يشير الى قول الشاعر الجاهلي :

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلان عير الحيّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشجُّ فلا يرثي له احدُ

لذلك — تراهم من التقهقر في مثل هـذه الهوّة السحيقة الاعماق ، ثم الاعجب من ذلك انهم راضون بالموت وفيهم اسباب الحياة ، انهـا لديهم وافرة ولكنهم بها غير عالمين

ان في هذه الرسالة كفايةً لايقاظ اولئك الرقود ، وهذا الرجاء نفسه كان الباعث لتنميق سطورها

فان وجدت آذاناً واعية وقلوباً صاغية فحبذا الامل ويا قرة العين وبشرى المستهل ؛ والا فما على من لم يوقظه دويُّ المدافع وصلصلة الحديد وزفير النيران ان لا يستفزّه صرير الاقلام منعكساً على صفحات الطروس ؛ فليتمزج هذا بذاك وصدر الفضاء اوسع من ان يضيق عن حفظ كليهما حتى يأتي امر الله

على ان في العالم الاسلامي اليوم هزّة انتباهٍ ويقظة مستبصرٍ ونشاط متحفزٍ مما يؤذن ان شاء الله بكسر القيود وتحطيم الاغلال وعود ذاك المجد المؤثل والشرف القديم . وان امامنا — معاشر المسلمين — مستقبلاً وضيئاً قد بدت بحمد الله طلائع بشره . وما علينا الا ان نثب لمصافحته ولا ندع الفرصة تذهب ضياعاً وانا ان شاء الله باكثر مما نؤمل لظافرون

فلا تيأسي ايتها السطور الكريمة ! انك وديعة في ذمة الايام ، ورب قول انفذ من صول

القطب الثاني

في الاتحاد الاسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال

لكل داء دواء وانما مناط النجاح حذاقة الاساة في تشخيصهما. الامراض الاجتماعية كالاعراض الجثمانية وانما أساتها اهل الغيرة من ابناء الامة ومفكروها. المسلمون مرضى منذ قرون وفيهم من العلل الاجتماعية ما ينوء بالاحصاء ولكن المنبع واحد والبقية فروع

ان داء المسلم كونه مسلماً كما اراد، ودوائه ان يكون مسلماً كما يريد الله

لا حياة لاهل كلمة التوحيد الا بتوحيد الكلمة، والموت كل الموت في شتاتها، فاتلُ ان شئت قوله تعالى: «لا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» ثم اذكر الحديث الشريف: «اَلْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ»

ان الدواء الوحيد للعالم الاسلامي ان يمثّل امة شعارها التوحيد ودثارها الاتحاد، وذلك ما يريد الله. وان كنت في ريب من هذا فاتلُ قوله عزت كلمته: «اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا» ثم تدبر ما حواه من الموء كلمات

ان ما ورد من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة في

وجوب اتحاد الامة وتعاون افرادها اكثر من ان يحصى . وبهذه الحكمة البالغة تمكن المسلمون في صدر الاسلام من اظهار الخوارق التي ادهشت العالم اجمع يوم قلبوا الكون رأساً عَلَى عقب ونزعوا بالامم الى طور من الحياة جديد

ان ما تضمنته تلك الحكمة البالغة من اسرار السياسة ودقائق الاجتماع قد اثبتته التجارب من قبل ومن بعد ، ولا اثر بعد عين ، فهذه الامة الاسلامية لها عَلَى ذلك شاهد من نفسها في الطورين من حياتها ، اذ احياها الاتحاد في مبتداها واذ اماتها الشتات في منتهاها . ولن تحيا حتى تعود عَلَى ما بدأت به ، وهو السر المرموز في قول الخليفة الاول «ض» « والذي نفسي بيده لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها »

مضت قرون ، ونور هذه الحقيقة مطموس عليه بظلمات الجهل من الامة وهي تكابد بسبب ذلك ما تكابد من جور الليالي وعذاب الايام ، حتى قيّض الله لها مَن عرف الداء واهتدى الى الدواء فقدر الحقيقة قدرها واخذ يسعى لتحقيق آثارها واولئك هم المفكرون [1]

«١» هم رجال حزب الاتحاد والترقي من الاحزاب السياسية العثمانية ومن اراد تفصيل ذلك فليرجع الى رسالة « صدى الحقيقة » تعريب الخطب التي القيتها في العاصمة اذ كنت مندوباً في البعثة العلمية

ان الشمل الممزق من العالم الاسلامي لا يمكن جمعه الا بطريقة واحدة وهي التي شرعها الله في ديننا لمثل هذه الغاية التي يتوقف عَلَى تحقيقها بقية الغايات ؛ وما هي الا الخلافة الاسلامية

ولكن ذلك متوقف عَلَى معرفة المسلمين كافةً مكان الخلافة من الدين وانها فيه بمثابة القلب الذي لا تتم الحياة للجسد دونه. وهذه الرسالة كافلة باداء هذا الواجب

ان اليوم الذي يعلم المسلم بوجوب اتحاده مع اخيه المسلم مهما بعدت بينهما الشقة ، وبوجوب التضحية في سبيل رابطة ذاك الاتحاد اعني الخلافة الاسلامية ، ثم يعمل بمقتضى علمه انه لليوم الذي يثبت فيه المسلم انه قد قام باول واجب ديني ، وانه لليوم الذي تحفظ فيه بيضة الاسلام ويعز المسلمون . والذي يملوء القلب جذلاً وابتهاجاً انا — معاشر المسلمين — قد صافحنا فجر ذاك اليوم السعيد ، وما بعد انفلاق الفجر الا تبلج الاضواء وتمزيق حجب الظلماء ثم جريان الشمس في كبد السماء ، فاهلاً بالنور وحبذا الامل يسطع ضوئه من افق الحبور

ان فكرة الاتحاد الاسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال امر واقع لانها جزء من الدين يرشدك الى ذلك ، اصوات الخطباء عَلَى منابر التبليغ في مشارق الارض ومغاربها ايام الجمعة وفي

لاعياد — فمن شك في المسلمين انهم موحدون جاز له الشك في انهم متحدون ، فنحن لا ندعوهم الى الاتحاد لانه من قبيل تحصيل الحاصل ، وانما ندعوهم الى الالتفات الى ذلك ، والفرق بين الامرين كالفرق بين ما قُصد اولاً و بالذات ، وما قُصد ثانياً و بالعرض . مثال ذلك : انك تقف امام المرآة وينطبع رسمك فيها ولكنك غافل عن ذلك ، فلا ترى نفسك ولا تعرف ما عسى ان يكون قد طرأ عَلَى زيِّك من زيادة او نقصان ، ولو لاحظت المرآة قصداً لتمّت الغاية المطلوبة من الوقوف امامها

فنحن لا نريد من الدعوة الى الاتحاد الاسلامي الا ملاحظته قصداً لنحصل منه عَلَى الفائدة التي فقدناها بسبب الغفلة وسوء التدبر . ومثل هذا لا يحتاج الى كبير عناء : ان الله قد مهّد لنا هذا الوطاء في الدين وانها لَسِنَّة لا يعوزها الا الانتباه

واما الفائدة التي نتطلبها من الاتحاد الاسلامي فانها لا تخصّ المسلمين فقط بل تعمّ طبقات البشر كافةً ، فالعمل عَلَى تلك الفكرة خدمة للانسانية وابنائها ، لا خطر عليهما كما يزعم بعض ارباب الغايات الفاسدة حتى ربما موّهوا عَلَى بعض البسطاء : ان فيه خطراً حتى علينا نحن معاشر المسلمين !!

الا ليثقنّ صرعى الطيش وسكارى الغرور ثم ليعلمنّ شهداء

الجهل وأسارى التقليد ان الانسانية لن تستريح ما دام المسلمون في نكدٍ من العيش . ندّعي هذا من حيث يوافقنا عليه كل مفكر منصف ثم نثبته من وجوه فنقول :

اولاً : ان المدنية الحاضرة قد وسّعت نطاق الارتباط بين الامم والشعوب حتى اصبحوا واصبحت الكرة اشبه بعائلة كبيرة تسكن داراً واحدة ، ومما لا مرية فيه ان حسن انتظام العائلة انما يتمّ بتوزيع الاعمال بين افرادها ، والمسلمون قسم كبير من هذه الافراد ؛ فبقائهم معطلين عن العمل بسبب تقهقرهم وانحطاطهم نقص فيما يجب لتلك العائلة الكبيرة من حسن الانتظام : ان حرمان البشرية من عمل ثلاثمائة وخمسين مليوناً من صميم ابنائها جناية على البشرية كبرى

ثانياً : ان فرط الارتباط بين الامم والشعوب قد جعلهم بمثابة الاعضاء تمثل جسماً واحداً ، والامة الاسلامية عضو في هذا الجسم كبير ، فابقائه عليلاً يشكو الآلام والاسقام مما يشوّش على المجموع لذة الحياة بصورة طبيعية وفقاً لما يقتضيه « علم وظائف الاعضاء »

ثالثاً : ان طمع القويّ بالضعيف رجاء ان يسعد بشقائه غريزة في البشر ، فما دمنا معاشر المسلمين ضعافاً فانما نحن فتنة يشقى

الطامع فينا ولا يدعنا نسعد ، ثم من بين هذا وذاك يعلو انين الانسانية في شكواها ، فالعمل عَلَى اضعافنا مدعاةٌ لاضطراب الانسانية وتشويش لمسراها . ان ابتلاع ثلاثمائة وخمسين مليوناً ليس بالامر اليسير

رابعاً : ان سياسة العصر قائمة عَلَى حفظ التوازن ، فما دام العالم الاسلامي متزلزل الاركان فلن يستقيم للسياسة قسطاس . ومن دقق تاريخ الحروب بنظر نافذ رأى اكثرها قد استعرت ناره من مثل هذا الشرر ، حتى ان هذه الحرب العامة لو كان للمسلمين منعة وكان وزنهم في كفة السياسة راجحاً لما انفجر بركانها واستعرت نيرانها حتى تألم لويلاتها قلب الانسانية ونجم عنها من الخسائر ما لا يمكن تلافيه باقلّ من مأتيْ عام

خامساً : ان الانفجار نتيجة التضييق ، وللمسلمين عدد لا يستهان به ، والليالي حبالى يلدن كل عجيب ؛ فكيف يوءمن الخطر عَلَى المجتمع الانساني اذا اضطرت المسلمين العوامل فاعاد التاريخ نفسه وضرب الزمان امة باخرى فاذا انحاء البسيطة كرة من نار واذا للكون خريطة اخرى رسمت بالاحمر القاني من دموع الانسانية بدلاً من المداد

من زعم ان في الامكان محو العالم الاسلامي من الوجود دون

ان تمحى خريطة الوجود — ما دام للمسلمين دين مرتكز عَلَى السياسة[1] وخلافة مرتكزة عَلَى قواعد الدين — فقد ظنّ غلطاً وركب شططاً

ان الاتحاد الاسلامي يدرأ في نحر هاتيك المخاطر ويحفظ الانسانية من مثل هذه الويلات ثم يزيد المدنية الاوربية رونقاً وبهاء كما كان منبثق انوارها في عصور الظلم والظلمات مما لا ينكره من له ادنى المام بتاريخ مدنيات الامم في القرون الخالية

فيا سبحان الله ! انحفظ الانسانية بالامس ونشيد اركان المدنية ثم نكون اليوم خطراً عليهما ؟

ولكن هي الغايات الفاسدة والمقاصد الخبيثة تحمل عديمي المروءة عَلَى تشويه الحقائق وارتكاب كل فضيلة في مثل ذاك السبيل

(١) سيتضح لك هذا من المباحث التي ستمر بك تباعاً

الفصل الاول

في منشأ الخلافة الاسلامية ويشتمل على اربع تمهيدات ومقصود

التمهيد الاول

في ان انبياء الله خلفائه في الارض

للانسان اربعة ادوار : دور العدم ، دور الايجاد ، دور الارشاد ، دور الجزاء ، اى دور العقاب والثواب . وها انت تجدها على هذا الترتيب متتابعةً متناسقةً في سورة الانسان من كتاب الله المجيد

فاما دور العدم يوم لم يعطس به انف الوجود فذلك قوله تعالى: « هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » فالانسان بالاضافة الى ذلك الحين [1] لا يجوز عليه الحكم بوجه من الوجوه لانه عدم ولان النفس لا تتوجه نحو المجهول المطلق — كما يعرفه المنطقي — اجل مبلغ العلم بالانسان يومئذٍ انه كان تراباً ،

---

(١) اما تخصيص الانسان بآدم والحين بار بعين سنة كان فيها مصوراً من طين ، او ابقاء الانسان على اطلاقه ثم تخصيص الحين بمدة الحمل فكل ذلك مجاز لم تتعذر معه الحقيقة فندعه لمرتكبيه

حتى تعلقت ارادة الله بخلقه فكان انساناً ، كما قال جلّت حكمته : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ »(١) ولكن كونه تراباً غير كونه انساناً ، فهو من هذه الحيثية لم يكن شيئاً مذكوراً

واما دور الايجاد وحفظ بقاء النوع فذلك قوله جل ثنائه « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً » فاوجده اذ سواه من تراب ونفخ فيه من روحه كما قال : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . » ثم حفظ نوعه اذ خلق له زوجه وجعله نطفاً تنتقل من الاصلاب الى الارحام كما قال عزّت كلمته : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »(٢)

---

(١) في هذه الآية الكريمة اشارة الى قانون التكامل اي قانون النشو والارتقاء

(٢) وتشير هذه الآية الى « بقاء الانسب » اذ بالتناسل يتم بقاء الانسان ولا مرية ان كونه انساناً انسب من كونه تراباً وكذلك تشير الى سر تشكيل العائلات بجعل المودة والرحمة بين الزوجين . ومن تدبر مغامز هذه الآيات الكريمة من قوله « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » الى قوله « وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم » وما حوته من

ولكن تكوينه من نطفة امشاج [1] جعله جمعاً للاضداد فبينما تراه يرفرف في عالم الملكوت يزاحم ابناء النور في سبحات الجلال ، اذا به كسير الجناح يتخبط في الحضيض الاسفل يغالب ابناء النار في قبول الرذائل وبثّ الشرور . وهذه القابلية فيه هي التي كانت مناط الابتلاء وهي التي جعلته قرين الشيطان وعبد الرحمن في آن واحد : فمن غلبت ملكيته على عفريتيته فقد فاز ، ومن تغلبت فيه الثانية على الاولى كان لنفسه من الظالمين

ولكن الانسان لو تخلّى ونفسه لكان الى الشر اقرب منه الى الخير [2] والله لا يريد بعباده شراً [3] فنجم عن هذا وذاك بعثة

دساتير النشئتين وفلسفة حياتهما مع التعرض لجلالة كنه الالوهية باوجز عبارة وادق اشارة خرّ امام عظمة الله ساجداً وايقن ان هذا القرآن منزل من لدن حكيم خبير

(١) مفرده مشيج كايتام ويتيم ومعناه الخليط والنطفة مختلطة من عناصر متضادة بين بارد رطب ويابس حار كالماء والنار وبين لطيف وكثيف كالتراب والهواء وهذه الاربعة كذلك مركبات غير بسائط كما عرف في محله ثم كل منها يريد مفعوله ضرورة ان الماهيات لا تنفك عن طبائعها . ومن ثمة كان الانسان ابن التطور قابلاً لاية حالة ترد عليه او تصدر عنه ومن هنا كان مجمع الاضداد ومن هنا اتى الابتلاء في قوله « نبتليه » اما ان المراد من نطفة امشاج اختلاط ماء الرجل بماء المرأة فذاك رأي ندعه لقائليه

(٢) بدليل انك ترى العصاة اكثر من الطائعين واهل الايمان اقل من

الرسل صلوات الله عليهم وجعلهم خلائف في الارض ليكبحوا من جماح الشر الذي لولاهم لما صدر عن الانسان سواه . ومن هنا اتى الدور الثالث الذي وسمناه بدور الارشاد

واما دور الارشاد فذلك قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا

عرفت غرائز البشر في فطرته وانه محتاج الى مرشد يقوّم من اوده وهادٍ يدعوه الى سواء السبيل ، فما هي الطريقة الموصلة الى ذلك ؟

ان الانسان الذي لو تخلى ونفسه لغلبت عفريتيته على ملكيته فكان كله شراً ليس في وسعه ان يكون بعمومه مظهراً للخطاب الالهي والوحي الملكي ، والحكمة تقضي بتجانس ما بين مدعوّ وداعيه ومهديّ وهاديه كما قال تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » والله اعلم حيث يجعل رسالته ، ويختص برحمته من يشاء ، فاختار من بني الانسان افذاذاً في وجهتهم الملكية

الكافرين والمؤمنون يوم القيامة كنقطة بيضاء في شعر جلد ثور اسود كما ورد في الاثر . هذا مع ارسال الرسل وانزال الكتب ونشر نور الارشاد واقامة الحدود بين العباد . فكيف لو تخلى الانسان ونفسه ملقى زمامه على الغارب ؟

(٣) لا يفهم منه وجوب رعاية الاصلح للعبد على الله كما ذهب اليه المعتزلة

فضل على وجهتهم العفريتية فخصهم بالعصمة واهلهم لما يريد فكانوا خلفائه في ارضه ورسله الكرام بينه وبين عباده رحمةً منهُ وفضلاً والله ذو الفضل العظيم

كذلك هدى الله عباده السبيل : فبعث فيهم رسلاً من انفسهم يتلون عليهم آياته و يعلمونهم الكتاب والحكمة . فصدعوا بما امروا و بلغوا ما انزل اليهم من شرائع الله واحكامه وكانوا خلفائه في تنفيذها كما صرح بذلك في غير موضع من كتابه العزيز ، قال تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . » فجعل الحكم بين الناس بالحق من قبل داوُد عليه السلام مرتباً على جعله خليفةً في الارض ثم قابل ذلك باتباع الهوى وعدَّه ضلالاً عن سبيله . وقال تعالى : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . » قال في الجلالين عند قوله « اني جاعل في الارض خليفة » يخلفني في تنفيذ احكامي فيها وقال عند قوله « اني اعلم ما لا تعلمون » من المصلحة في استخلاف آدم وان في ذريته المطيع والعاصي فيظهر

العدل بينهم

ومن امعن النظر فيما قصه الله علينا من المحاورة بينه وبين ملائكته في آدم واستخلافه من قولهم «اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» الى قوله: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.» انتبه الى اسرار كثيرة ومغامز غير يسيرة مما يعرّفه عظمة النوع الانساني، وتقلّبهُ في تصاريف الحياة، ثم علوّ شأن الاستخلاف فيه من وجوه شتى؛ ولكنا نكتفي من التنبيه على ذلك بمجرد استلفات الانظار اليه خشية الاطناب

وصفوة القول ان انبياء الله خلفائه في ارضه يهدون عباده السبيل فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها، وهكذا كان الانسان اما شاكراً واما كفوراً

ولكن وجود المحسن والمسيء بعد قيام الحجة واتضاح المحجة يقضي بالثواب لمن احسن والعقاب لمن اساء رَوْمَ التمييز بينهما قضاءً لواجب العدل واستبقاءً لحكمة الفصل، اذ لولا الوعد والوعيد لقصر المحسن ولجّ المسيء فاختلّ النظام وضاع المقصود وكان الأمر فرُطاً. ومن هنا تكوّن الدور الرابع: دور العقاب والثواب

واما دور العقاب والثواب فهو منصوص عليه بقوله سبحانه:

« إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا » وذلك بعد قوله عز اسمه : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »

فآية الثواب تخصّ الشاكر ، وآية العقاب تخصّ الكافر ، ولكن كلا الامرين راجع الى الدار الآخرة لان ما ترتبا عليه عائد لذاته تعالى . وهنا ايضاح لا بدّ من التنبيه عليه ، فنقول :

مناط كلٍ من الثواب والعقاب هي الاعمال التي رسمت لها الشرائع حدوداً في التكليف ، وهي بهذا الاعتبار عَلَى قسمين : ما كان حقاً لله عَلَى عباده ، وما كان حقاً لهم ازاء بعضهم بعض ، فالاول عبارة عن العبادات اجمالاً ، والثاني عبارة عن المعاملات كذلك ، وكلاهما حدود الله وليس في الشرائع والاديان وراء ذلك وراء . فاما حقوق الله فما يترتب عليها من الثواب والعقاب مؤجل ليوم البعث والحساب ، وفيها المعجل في هذه الدار . واما حقوق العباد بعضهم ازاء بعض فهي قضاء معجل ثم حساب مؤجل ، وهي التي تسمى حقوقاً في الدنيا ، وتبعاتٍ في الآخرة ، فيحسمها القضاء هنا ، ولا يغفرها الله هناك الا ان يعوض من عنده كما في الحديث الشريف

فاذا تمهد هذا وجب ان يكون في الملة من يقوم بتنفيذ تلك الاحكام المعجلة من قسمي العبادات والمعاملات، والا تعطّل كل هذه و كثير من تلك، وليس الدين الا عبارة عنهما، فلا يبقى حينئذٍ من الشرع الا اسمه ومن الدين الا رسمه، وتذهب الحكمة من بعثة الرسل وسن الشرايع سدى و يفقد الانسان دورين من ادواره الاربعة دور الارشاد ودور الجزاء. فيرجع النهقرى الى دوره الابتدائي — اعني دور الايجاد — ومن هنا لا يلبث ان يصبح هملاً يتخبط في دياجر غيه وقد غلبت عليه غرائزه وتحكمت فيه اهواؤه فلا تزال شروره تتفاقم حتى يعود كله شراً يأكل بعضه بعضاً وما عقبى مثل هاتيك الشرور الا الفناء فربما حقت عليه الكلمة فاذا هو راجع الى دوره الاول : لم يكن شيئاً مذكوراً

فمناط حفظ الشرائع والاديان ثم بقاء الانسان انساناً انما هو خلائف الله في ارضه، وما خلفاؤه فيها غير انبيائه الذين يأتون بالناموس الاكبر من التعاليم الالهية، فيضعون الاسس و يبثون النور و يهذبون من حواشي البشرية ما لو ترك ابناؤها واياه لظلوا في طغيانهم يعمهون .

التمهيد الثاني

في اثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

عرفت مما مرّ بك في التمهيد الاول ان انبياء الله خلفاؤه في الارض فنقول : ان من جملة انبيائه محمداً صلى الله عليه وسلم . وهذه

الدعوى تثبت من طرق متعددة ووجوه شتى ، ولكنا نكتفي من ذلك بامرين اليهما ينتهي كل برهان : التواتر والقرآن

اما التواتر فما زالت الاجيال تنقل عن الاجيال منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن انه ظهر في بطحاء مكة رجل من بني هاشم يدعى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فادعى النبوّة وانكر عليه قومه ثم ما زال مثابراً على دعواه يعضدها بالآيات الباهرة والمعجزات القاهرة حتى ضرب على افواه المنكرين لجام الافحام والالزام

ربي في قومه يتيماً وكبر فيهم فقيراً وكان أمياً لا يعرف ما العلم وما الكتابة كما وصفه القرآن بكل ذلك ، فقال : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى » وَقَالَ : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ » ولو لم يكن متصفاً بهذه الاوصاف لما امكنه ان يجهر بها في قومه على لسان القرآن الذي كان يتحداهم به على سبيل الاعجاز

ولا ينكر من له ادنى مسكة من تعقل ان السلاح في معترك الحياة لا يكاد يعدو هذه الثلاث : العلم والمال والرجال . ومن كان أمياً ، فقيراً ، يتيماً في آن واحد فهو فاقد لها طبعاً ؛ فكيف

تسنى لمحمد «ص» وهو اعزل من كلها ان يُلقيَ نفسه في اعظم مضمار كافح به العالم اجمع من كتابي ووثني ودهري معطل، يدعوهم الى اثقل شيء على النفوس، الا وهو تغيير الاديان المألوفة والمعتقدات الراسخة والتقاليد الموروثة والعادات المتبعة، ثم في مقدمة الجمع بارز قومه الذين نشئ فيهم يتيماً معدماً يبعد ان يروه من بينهم اهلاً لذاك الامر الخطير وفيهم اولوا المنعة والقوة والانفة والكبرياء كما قالوا: لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (١) هذا واشد الناس خصاماً له وتألباً عليه اقربهم اليه نسباً وامسهم به رحماً اولئك عشيرته الاقربون وذو واقرابته الادنون

اما هو «ص» فقد صبر على كل اذى واغضى على القذى، لم يثن من عنان عزمه ثانٍ على تفنن القوم في التماس وسائل الصد له عما كان يريد من وعد ووعيد فلم يؤثر عليه شيء من ذلك، لا اطمعته رغبة ولا استفزته رهبة، حتى ولا عهد الصحيفة ولا يوم تآمروا على قتله؛ بل كان يلقى كل كارثة تدهمه بثبات جأش ومتانة عزم وحسن صبر ثم يقول: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما رجعت عن هذا الامر .... وكذلك كان،

---

(١) يريدون الوليد بن المغيرة من مكة وعمرو بن مسعود الثقفي من الطائف

حتى جاء نصر الله والفتح وغدا الناس يدخلون في دين الله افواجاً

فلولا انه موءيد بنفحة قدسية وناموس الهي لما امكنه اقتحام كل هاتيك العقبات حتى صرع مبارزيه وهو اعزل وخرج ظافراً من مثل ذاك المضمار

كانت العرب عروقاً لا تلتوي فلواهـا ، وكانت الغياهب مدلهمّة فكشف دجاها . كسر الاصنام بالرغم عن خفرائها ، ومـا خفراؤها الا قوياء اشداء ، وما هي في معتقدهم الا آلهة

ذل له اصحاب التوراة ، وارتعدت منه فرائص اهل الانجيل ، وفيهم نخوة السبق عليـه ، والامر لهم ممهد ، والقلوب عليهم غير منكرة

فاوض النجاشي ، وانذر كسرى ، وتوعد قيصر ، وهم دعائم الشرق واوتاد جبروته ؛ ثم استقام لمن استقام له ، وثلّ عروشاً ودوّخ ممالك من آخرين

نطق بالحكمة وجاء بالنـور واوضح مكارم الاخلاق ووضع شرائع وسنّ احكاماً في ديار تقطر جهلاً وتسيل ضلالاً وتبرق ظلماً وتمطر ظلاماً ؛ ثم جمع الكلمة ولمّ الشمل والّف بـين جموع متناحرة وقلوب متنافرة وآراء متباينة ؛ فاوجد قوةً عن ضعف ومنعةً عن ذلّ ، وشاد ملكاً من غير انقاض وانما اقام دعائمه عَلَى

بقايا امةٍ كانت مبعثرة الاشلاء.

غيّر خريطة الوجود وقلب الكون رأساً على عقب وبدّل الارض غير الارض ، ولا معين له الا الصبر ولا خدين الا العزم ، حتى اقرّ له جاحدوه ونصره معاندوه وعضده اضداده وآزره اعداؤه ، فوسّع النطاق ومدّ في السبب وضرب من ادبر بمن اقبل ووجّه الاعنّة نحو كل صوب ؛ فاذا صيته طائر واذا نوره منتشر في جميع الانحاء.

فعل كل هذا وهو اميّ ، فقير ، يتيم

فسبحان الله هل فوق ذلك من دليل تثبت به نبوة محمد «ص»؟ ام هل فوق تاريخ حياته هذا من معجزة تنهض حجةً لصدقه فيما ادعاه على كر الليالي ومرّ الايام ؟

بل نقول : ان مجرد ثباته على ما عاناه في سبيل دعواه من فرط التحزب عليه والايذاء له والايقاع به معجزة له : اذ لم يستفزه وعيد مع فقد الناصر ، ولا وعد مع وجود الفاقة ، فلولا انه مؤيد بروح من الله لما ثبت في موقف يستحيل على الانسان عادةً ان تثبت فيه قدماه . وانها لحقيقة جديرة بالتدبر والاستبصار ، ثمّ تصريح القرآن بها على سبيل الخطاب معه بذلك اجدر ، فاتلُ ان شئت قوله تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

شَيْئاً قَلِيلاً »

بل نقول : ان نجاته من مخالب القوم اذ لم يتمكنوا من قتله واغتياله ، مع فرط حرصهم عَلَى ذلك وتكرار التصدي له والمؤامرة فيه ، معجزة من معجزات نبوته اذ لم تكن لديه قوة تمنعه ولا مال يفتدى به ، والاسباب التي تمكن اعدائه مما ارادوا اكثر مما كانوا يريدون ، فليت شعري ما الذي حال بين القوم و بينَ ما كانوا يشتهون ؟ واذا لم يكن الحائل هو ذاك الناموس الاكبر فماذا عسى ان يكون ؟ ثم ها هو القرآن قد جهر بهاتيك الحقائق عَلَى مسمع من القوم فقال : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ (اي يقتلونك) وَإِذَنْ لاَ يَلْبَثُوا خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً » . وقال : « وَٱللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ

قد يقال : هذا التاريخ بين ايدينا يخبرنا بوجود نوابغ ظهر عَلَى يدهم ما عجز عن الاتيان بمثله ابناء عصرهم ، فهل نقول فيهم ما تقولون في محمد «ص»؟ واي فرق بينهما ؟

فنقول : ايّ النوابغ تعنون ؟ ان التاريخ الذي بين ايديكم هو بين ايدينا كذلك ، فهلموا نتحاكم لديه : ان ميزان الاعمال ما يترتب عليها من الآثار ، فارونا رجلاً كان لعمله ما كان لاعمال محمد «ص» نقل فيه ما قلنا فيه . ايّ رجل كمحمد «ص» ترك في العالم دوياً

اهتزّ له جانباه ، ثم أسس عَلَى تلك الدعائم بنياناً لم يزده كرُّ العصور الا رصانةً وتثبيتاً ؟

اجل : نرى نوابغ في التاريخ ذوي اعمال كبيرة ثم نراهم واعمالهم كالظل والشاخص ما لبثت ان زالت بزوالهم ، اما محمد «ص» واعماله فكما قال الله فيما انزل اليه : « وَمَا مُحَمَّدٌ اِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ اَوْ قُتِلَ اُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً » وبهذه الآية الكريمة ثاب الى اصحابه رشدهم يوم توفاه الله اليه فاخذتهم الحيرة واستولت عليهم الدهشة حتى قام فيهم ابو بكر «ض» خطيباً فذكّرهم بها ثم قال : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمد فان رب محمد حيّ لن يموت . وها اننا نرى اعمال محمد «ص» حيةً يقدّسها الوف الالوف في مشارق الارض ومغاربها ويهتدون بهداه فيها وهو ميت ضجيع التراب منذ نيف وثلاثة عشر قرناً . ها هي اعماله اوجدت امةً عظيمةً لم تزل في ازدياد عَلَى مرّ القرون حتى انها لتعدُّ اليوم ثلاثمائة وخمسين الف الف ، فاروني نابغةً ممن تريدون طوته الايام وبقي لعمله جمع منظم يعدُّ ثلاثمائة وخمسين نسمةً . ما نرى من ذلك من شيء الا ما كان من امر موسى وعيسى عليهما السلام ، وها انك ترى انا بهما مؤمنون وبنبوتهما معتقدون

فان قيل : انما اتى الفرق من اختلاف المشاريع : فان صوت الاديان يبلغ حيث لا يبلغ سواه ، وما يدريك ان محمداً «ص» انما وُفِّق من هذه الوجهة ، ولو كان صوت غيره من نوابغ التاريخ نفس صوته الذي صاح به لبلغ حيث بلغ

قلنا : ان محمداً جاء على حين فترةٍ من الرسل فكان ذلك ادعى للانكار وابعث للنفور كما كان يقول معارضوه : « مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِ هَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ » . وقد قام رجال عَلَى عهده ومن بعده ادعوا دعواه ، وقد توطدَت النفوس لمثلها ، فابرزوا من الدهاء ما استفزوا به الاحلام حتى كان لهم اتباع واشياع وانصار واعوان ثم لم يلبثوا ان افتضح امرهم وانفرط عقدهم وغاض مائهم وسالت دمائهم وفُلَّت جموعهم واقفرت ربوعهم كأن لم تغن بالامس ولم يكونوا شيئاً مذكورا . وما كان محمد «ص» اكثر منهم مالاً واعزّ نفراً ولكن هو الناموس الالهي ينزل حيث يريد الله وهي رحمته يختص بها من يشاء

فاستقرار الامر لمحمد «ص» حتى الساعة دون غيره ممن رموا مرماه وادعوا دعواه — والامر عَلَى ما عرفت مفصلاً — معجزة له «ص» تثبت انه على بينة من ربه وانه مؤيد من لدن خالق الارض والسماء كموسى ، عيسى واخوانهما من الانبياء والمرسلين صلوات الله

عليهم اجمعين. ذلك ليحق الله الحق ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً

اضف الى كل ما مرّ بك ما نقله الينا جيل عن جيل مما ظهر عَلَى يده «ص» من الافعال الخارقة للعادات: كانشقاق القمر، وسعي الشجر، ونطق العجماء، والاخبار عن المغيبات، وتفجر الماء من بين اصابعه، وتسبيح الحصى في كفه، الى غير ذلك من المعجزات التي دلّت عَلَى صدقه وبكتت معارضيه

ورب قائل: ان كلّ ما ذكرت من تاريخ حياة محمد «ص» وزعمت من معجزاته الخارقة لم يبلغ آحادها مبلغ التواتر، فكيف تنهض حجةً عَلَى ثبوت نبوّته؟

فنقول: لا نسلم ذلك فان كثيراً منها لئن كان غير متواتر عند الخصم فهو متواتر عند ذويه ولا يقدح بحقيقة عند قوم الجهلُ بها عند آخرين، فربّما يختلط من يجهلونها بمن يعلمونها يرونها متواترةً، وحينئذٍ يصدق عليها حد التواتر بالاضافة اليهم كذلك فتكون عليهم حجةً قائمة. عَلَى ان هناك مثالاً منتزعاً من هيئةٍ عامةٍ من تاريخ حياة محمد «ص» هو بمثابة الصكّ الذي ثبت مضمونه اجمالاً وان غاب نصه تفصيلاً: يسلمه غير المكابر من كل امة اذا اهتدى بنور حجاه ولم يؤثر ديجور هواه

ثم هولاء اليهود والنصارى يدعون لموسى وعيسى عليهما السلام معجزات شتى ، فان قالوا: انها غير متواترة ؛ قلنا : ان الاستمساك بها لا يجدي نفعاً . وان زعموا انها متواترة قلنا : ان تواترها بالاضافة الى اقوام دون آخرين ، فما الفرق اذن بين محمد وبين موسى وعيسى عليهم السلام ؟ ثم ما الفرق بين امة محمد وامتهما ؟ فما هو جوابكم فهو جوابنا . عَلَى ان لمحمد « ص » معجزةً اكبر من كل معجزات اخوانه عليهم السلام — كما يمرُّ بك اثبات ذلك الآن — الا وهي القرآن

واما القرآن فهو اكبر معجزةٍ اوتيها نبيٌّ منذ بدء الوحي وعهد النبوّات وتفصيل ذلك انا نقول : ان مناط التفاضل بين الماهيات المتماثلة ما يترتب عليها من الآثار فيما وجدت لاجله ، والمقصود من المعجزات للانبياء ان تكون حجةً عَلَى صدق نبوّتهم ازاء امة الدعوة . وكما ان المعاصرين للانبياء والرسل ذووا نفوس يعتورها الشك وتستفزّها الشبه فكان لهم حق المطالبة بالمعجزات جلاءً لذاك الصدإ وغسلاً لتلك الادران ، فكذلك الذين يأتون من بعدهم : بين جنبيهم تلك النفوس ، ولهم ذلك الحق ، لا فرق بين الفريقين : كلاهما بشر ، ونحن رجال كما هم رجال

بل نقول : ان الاعجاز ضروريّ لذات المصلحة من

«الرسالات . كيف لا ؟ وقد اختلف المحققون في ايمان المقلد لاحتياجه الى بواعث الاطمئنان ، ولا اطمئنان من غير الزام ولا الزام من دون اعجاز . وهذا نبي الله وخليله يقول « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» ولو لم يكن لمن ارسل اليهم حق المطالبة بالمعجزة لكانت مجاراة الانبياء لهم في ذلك ضرباً من العبث ، وانبياء الله اجل من هذا ، بل نقول : لولا هذا الحدُّ الفاصل بين الحقّ والباطل لشوّش على عباد الله كل يوم الف نبيّ (متنبيء)

اذا تمهد لديك كل هذا فنقول : ان القرآن هو المعجزة الباقية في عقب الملة مهما بعد الامد وتقادم العهد فكأنه ينادي على لسان محمد في كل زمان ومكان : عباد الله اني رسول الله اليكم وهذه معجزتي لديكم فاتقوا الله واطيعون

فاية معجزة مما اتى به الانبياء والمرسلون صلوات الله عليهم تجاوزت عهد الرسالة وزمن التبليغ غير القرآن ؟ ثم اية ملة تساوي عهد إعجازها في صدورها وأعجازها غير الملة الاحمدية ؟

نحن نؤمن ان عيسى كان يحيي الموتى باذن ربه وان عصا موسى كانت تلقف ما يأفكون ، ولكن اذا انكر الخصم هذا وطلب معجزة يراها بام رأسه تمثل له كما مثلت للذين من قبله

فماذا يضع امام عينيه قوم موسى وعيسى عليهما السلام ؟ اما نحن فنضع امامه القرآن

فللخصم حينئذٍ ان يقول : لا نسلم انه معجز . فنقيم عليه الحجة ونثبت دعوانا من وجهين

الاول : ان شأن المنكر دحض حجة المدّعي والحرص عَلَى ذلك بقدر الانكار عليه ، وقد عرفت من تاريخ حياة محمد « ص » فرط انكار قومه عَلَى ما جاء به حتى انه لو لم تعرف ذلك سماعاً لزمك تعقلاً ضرورة ان الناس اعداء كل موجد او مجدّد لا سيما الذين يجهلون . وقد كان « ص » يتحداهم بالقرآن فقال يخاطبهم عَلَى لسان من بعثه « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » اي ان كنتم ايها المنكرون عَلَى محمد في شكٍّ من ان هذا القرآن منزل عليه من عند الله فأتوا بسورة تضاهيه في البلاغة وحسن النظام وادعوا من يشهد لكم بانكم ضاهيتموه غير الله فان الله لا يشهد لان ذلك زور من القول . افعلوا ذلك ان كنتم صادقين في ان محمداً قاله من عند نفسه فانكم عرب فصحاء مثله . فلما عرف عجزهم عما دعاهم اليه وتحداهم به قال « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ

لِلكَافِرِينَ »

ثم تحداهم به اخرى وقد ارخى لهم العنان فقال « قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ . فلم يكلفهم في هذه المرة مما ثلثه من كلتا صفحتيه : استقامة المعاني وفصاحة التراكيب والمباني ، بل اطلق لهم العنان وفسح لهم المجال واكتفى منهم بامر واحد وهو حسن النظام وبلاغة الاسلوب فكأنما قال لهم : انكم قوم اميّون لم تثقف عقولكم العلوم ولم توسّع نطاقها الفنون ولا هذّبت حواشيها الحكمة ولا ضاء لها مصباح العرفان ؛ وانكم اهل بدوٍ وسذاجةِ حياةٍ ، لم تصقل جوهر افكاركم يد التمدن ، ولا نفخت في روعكم وانعشت ارواحكم لذة الحضارة ، ولا استفزت عروقكم وقدحت زند اذهانكم روح التبسط في العمران ؛ فلا ادعوكم الى مماثلة هذا القرآن بما تضمنه من بديع الحكم وجوامع الكلم وحسن العظة ونور الارشاد وسنّ الشرائع ووضع الاحكام وتمهيد سبل السياسة وكشف اسرار الاجتماع مما لا يضيء جيد الحياة الا بعقد حلاه ، اني ادع هذا اللباب وادعوكم الى القشور فأتوني بمثل هذه الجزالة في اللفظ والغرابة في الاسلوب عَلَى ما لكم من فرط العناية بفصاحة القول وبلاغة الكلام وليكن مما ينزل اليكم من سماء الفرية والاختلاق

ثم تحداهم الثالثة عَلَى سبيل الرد والتبكيت فقال « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ثُمَّ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فرد دعواهم ان هذا القرآن مفترى من محمد عَلَى الله بدعوتهم الى مماثلته ولو في الجملة ، يقول لهم : ألستم تزعمون ان هذا القرآن مفترى جاء به محمد من عند نفسه ؟ فأتوا بجزء واحد من الوف مما جائكم به محمد وما هو الا واحد منكم نشأ فيكم وربي بين ظهرانيكم ولم يزدكم في معالم الحياة شيئاً . ثم لا تقتصروا عَلَى انفسكم في معارضته وان كنتم جمعاً وهو فرد ولا تألوا جهداً في ذلك ، بل ادعوا من استطعتم ليظاهروكم في الامر غير الله فان الذي انزله قادر ان يأتي بمثله ، فان استطعتم انتم ومن معكم عَلَى بذل الجهد واستفراغ الوسع ان تأتوا بايسر ما يكون من هذا القرآن الذي جاء به محمد فانكم صادقون في قولكم افتراه والا فانكم كاذبون وانكم لانتم المفترون

ثم تحداهم الرابعة عَلَى سبيل التقرير لدعواه والتقريع للمنكرين اذ اعجزهم المرة بعد المرة فقال « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً »

ثم لما تكرر التحدي وفضح امر المتعدي وثبتت دعوى

المدعي رغم انف الجاحد لعجزه والزامه اخذ القرآن يصف نفسه ازاء منكريه بما كانوا ينكرون من قبل عَلَى سبيل الاخبار لا عَلى سبيل التحدي والاعتبار فقال «اَللّٰهُ نَزَّلَ اَحْسَنَ الْحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّٰهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً» ثم ضرب له مثلاً باعظم من هذا تنويهاً بشأنه وتبكيتاً لجاحديه اذ تصاغرت نفوسهم امام عظمته الكرة بعد الكرة فقال «لَوْ اَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ وَتِلْكَ الْاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ»

اذا وعيت هذا فنقول : ايُّ شيءٍ منع المنكرين عَلَى محمد من العرب بينما كانوا كلهم عليه منكرين ان يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن فيدحضوا حجته ويثبتوا صدقهم في دعواهم انه مفترٍ عَلَى الله ؟ لاسيما اذ كان «ص» يؤذن بتسليمه لهم واعترافه بصدقهم اذا ما فعلوا ذلك . قد رضي منهم بابطال هذه الحجة فقط عَلَى خلاف ما اعتاده الجدليون من عدم التسليم لاول وهلة : بل ترى الجدليّ كلما دحضت له حجة فرّ الى اخرى ثم لا يزال ينتقل من دليل الى آخر حتى لا يبقى في كنانته سهم ولا في قوسه منزع

ما الذي ضاق « بسوق عكاظ » ان لا يتّسع صدر بلاغته ويندلع لسان فصاحته لمماثلة سورة واحدة من القرآن ؟ وما كان عكاظ الا مجتمع البلغاء والفصحاء من العرب ومجتلى صور التفاخر والمباهات حتى يأتونه من كل فج عميق خطباء ينثرون وشعراء ينظمون وبلغاء يتفننون . وقد بلغ من فرط عنايتهم بذلك ان طأطأوا رؤسهم لمن سبق في ذاك المضمار ان يعلّق صحيفة فخاره في شعاره عَلَى جبهة الكعبة مطاف جموعهم وقبلة معتقداتهم ثم بت آلهتهم بزعمهم وبيت الله الحرام

لقد كان الاتيان بمثل سورة واحـدة من القرآن — لو استطاعوا — اسهل بكثير من خوض غمار الحروب وسفك الدماء ونهب الاموال وسبي الذراري واسر الرجال الى غـير ذلك من صنوف الرزايا والخطوب ؛ فليت شعري اي صارف صرف هاتيك الجموع ان يتدبروا مثل هذا فيريحوا انفسهم بشيء يسير من ذاك العناء الكبـير ؟ ولماذا اتسع لهم الوقت لاعداد الرجال وصرف الاموال وتضمير الخيول وتعبية الجيوش ثم شحذ السيوف وخوض نار الحتوف ولم يتسع الوقت لبليغ منهم ان يفكر ساعةً من زمان ويأتي بسورة من مثل القرآن ، فيريحهم من كل هذا العناء ويذهب بالشرف الاوحد ثم يتبجّح في جماهيرهم بصيت طائر وفخر سرمد ؟

اذا شئت فقل ان القرآن بذاته معجز بجزالة لفظه وغرابة اسلوبه، وان شئت فقل انه غير معجز بذاته وانما صرف عن معارضته القوم صرفاً. فنحن نقول: ان هذا الصرف نفسه اعجاز كذلك، والا فماذا عسى ان يكون الصارف لهم والسالب منهم قدرتهم ان لم يكن قدرة الله العزيز الحكيم ليؤيد نبيه ويثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وليقضى الله امراً كان مفعولاً

فان قيل: وما يدرينا لعل القوم عارضوه واستطاعوا ان يأتوا له بنظير ثم لم يبلغنا ذلك

قلنا: ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً وان المجهول لا يثبت به معلوم ولو كان شيء من ذلك لطنّت له الارض ورنّت السماء: تصور جموعاً كثيرة ذات مِرّة ومنعة وهي حانقة حاقدة عَلَى رجل واحد تريد قهره وتحرص كل الحرص عَلَى تبكيته وقد شرط لهم الاستسلام والرضوخ بشيء اذا ما اتوا به تمّ لهم الدست وكانوا عليه ظاهرين ثم ظفروا بذاك الشيء، أفلا يستحيل عادةً ان يخفت صوت هاتيك الجموع الظافرة ويغلب عليها صوت ذاك الواحد وقد حقت عليه كلمة الغلب وهو ضعيف مقهور؟ بل كان يهي عزمه ويفتضح امره وينتقض عمله فيخفض الجناح ويلزم السكون ولا ينبس ببنت شفة ثم لا يبدي، ولا يعيد...

كذلك مثل محمد «ص» ومثل العرب لو انهم استطاعوا ان يدحضوا حجتـه ويعارضوا كتاب الله ويأتوا لشيء منه بنظير

ها هو «مسيلمة الكذاب» اذ ادّعى الوحي والنبوة فعارض القرآن، وها هي ركاكاته وسخافاته في بطون الدفاتر وبين دفتي التاريخ، فما الذي اوصلها الينا جيلاً عن جيل وقرناً بعد قرن ثم حال بيننا وبين ما سواها عَلَى فرط وجود المنكرين عَلَى محمد «ص» من اهل الكتاب وغيرهم في كل جيل وحقب حتى ساعتنا هذه؟ ان العقل ليستحيل عادةً ان يحفظ التاريخ بين دفتيه امثال قول مسيلمة في معارضة القرآن: الفيل ما الفيل وما ادراك ما الفيل له ذنب طويل» وقول امريء القيس في معلقته

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

ثم يغفل معارضة القرآن بما يباريه في بلاغته وحسن نظامه وبراعة اسلوبه مع ما لذلك في التاريخ من المكانة القصوى لو كان امراً واقعاً

فالقرآن كان حجةً قاهرةً ومعجزةً كبرى لنبوّة محمد «ص» عَلَى اهل عصره وكذلك عَلَى اهل كل عصر ومنها عصرنا هذا كما عرفت وكما ستعرف الآن:

الوجه الثاني انا نقول : ان تأثير الزمان والمكان عَلَى تطور الامم والافراد مما لا يكاد ينكره من شمّ رائحة لفلسفة الحياة وعرف شيئاً يسيراً من روح الاجتماع ، وان الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما محمد «ص» لا يجهلهما من له ادنى المام بالتاريخ ، فما عَلَى المنصف الا ان يأخذ القرآن الذي اتى به محمد «ص» ويزن مبانيه ويفقه معانيه ويتدبر مغازيه — حتى اذا ما سبر غوره ووقف على مجموع ما تضمّنه من الحكم الباهرة والاحكام الزاهرة والمواعظ الزاجرة والارشادات الناضرة والتعاليم الفاخرة مما يخصّ الانسان ويعمّ الاكوان من اسرار الفطرة وقوانين الطبيعة ومقتضيات الحياة فما شئت فحدث عن خريطة الكون وصحائف الوجود من ارض وسماء — فهنالك يعطف النظر الى تاريخ حياة محمد «ص» والى الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما ثم يزن كلّ ذلك بميزان الدقة والانصاف ؛ فهل يجد ثمة قسطاساً مستقيماً ؟

فتعالى الله كيف انبثق مثل هذا النور من احشاء تلك الظلمات ؟ من اين اهتدى محمد «ص» الى تحكيم العقل المجرد بينما كانت الاحجار تحكم في العقول ؟ ينحتها الرجل بيديه ثم يعبدها بخرّ امام عظمتها ساجداً

وكفّاه اولى بالعبادة لو درى

هما نحتا هذى الصخور كما يدري [1]

من اين عرف داء الجماعة فوصف له الدواء بين ظهراني امة الفت شتات الشمل حتى استعذبت ذاك العذاب ؟ كيف عرف الداء والدواء ولم يُهتدَ اليهما منذ عهد ارسطاليس وجالينوس ؟من اين شرع الديموقراطية في البشر بينما كان بعضهم يأكل بعضاً ثم لا حياة بينهم للضعيف ؟ في حجر اي مدرسةٍ ترعرع فثقف عقله وشحذ ذهنه وصقل فكره ووسّع دماغه حتى اذا دانت له الطبيعة بحذافيرها جاء بهذا الناموس الاكبر :

الدين يسر والخلافة بيعة والامر شورى والحقوق قضاء

ألم يكن في عصر الظلام احدَ الاميين فيه ونحن في عصر النور مما كادت المدارس فيه تستخدم الطبيعة تحت اشارة العلم والفنّ ؟ فليأت احدنا منفرداً بل كلنا مجتمعين ببعض ما جاء به محمد في قرآنه المجيد . كل نور لدينا انه قبسة من هاتيك الشعاعات وكل كاتب عربي رضع البلاغة في حجور المدارس تحت نظام

---

(١)من ابيات كتبتها على الجدار في قلعة بعلبك عندما زرتها قبل ست سنوات . وقبله :

بكيت على الانسان ينحت صخرةً ويعبدها للنفع يوماً او الضرّ

خاص انه عاجز ان يأتي بشذرة من مثل ذاك العقد النضيد

يتطاول شعراء كل عصر وكتابه عَلَى من خلا من قبلهم فيعارضون هذا ويناقشون ذاك الحساب حتى قال من قال يحطّ من عصر الجاهلية ويتطاول عَلَى امرئ القيس وامثاله :

هذا كلام كان لؤلؤ عصره وغدا بهذا العصر بعر الجمال

ولكنك لا تجد خلال كل هاتيك العصور من حدثته نفسه ان يعارض القرآن ، اعترافاً منهم باعجازه واذعاناً ، عَلَى اختلاف طبقاتهم في المذاهب والاديان . والذي منّاه غروره واوحى اليه شيطان غيه ، فتصدى لمثل ذلك ، لم يملك نفسه لدى التمحيص ن يعترف بعجزه كما اتفق لاحد الملحدين من معاصري عليّ بن الجهم : لقيه يوماً بين الكرخ والرصافة فاستوقفه ثم قال له « انى قد عارضت قرآن محمد فجئت بمثله » فاستحلفه ابن الجهم هل استويا عنده ام هل لذ في ذوقه قرآن نفسه بقدر قرآن محمد والمرء مشغوف بنتائج فكره . فما كان منه الا ان خضع امام الحقيقة ثم لبس ثوب الخجل وولّى بعار وشنار

هذا محمد « ص » وهذه بعض معجزاته الكبرى وبراهينه الساطعة الدالة عَلَى ثبوت نبوته رغم كل جاحد ومكابر ومعاند حتى ان فرط وضوح الحجة اضطر الفريقين من مخالفيه للاعتراف

بعض حقه فطأطأ له فلاسفة « المعطلة » رؤسهم وقالوا : انه اكبر فيلسوف برز الى ساحة الوجود . وقال المعتقدون بالنبوات : انه نبي مرسل ولكن الى قومه خاصة [1] « والفضل ما شهدت به الاعداء »

التمهيد الثالث

في تحقيق معنى النسخ وان شريعته « ص » ناسخة لما تقدمها من الشرائع

النسخ عبارة عن الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت المشروط استمراره بعدم لحوق خطاب يرفعه . مثال ذلك الخمرة فقد جاء فيها خطابات متعددة دلت على رفع بعضها حكم بعض بعد لحوقه به ؛ وتفصيله :

ان الخمرة كان حكمها مطلق الاباحة التي دل عليها خطاب الله في قوله « تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا » . فمازال هذا الحكم مستمراً حتى لحقه خطاب آخر اوجب رفعه على سبيل التحوير من

---

(١) وهذا جهل محض لانه يؤل بقائله الى الجمع بين النقيضين . وتحريره : ان القول بانه نبي يلزم منه القول بانه صادق بكل ما جاء به لاستحالة الكذب على الانبياء والقول بان رسالته خاصة يلزم منه نقيض ذلك لانه (ص) قد اخبر بان بعثته عامة

الاطلاق الى التقييد ، وذلك قوله تعالى « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » فصار السكر محرماً في وقت كان فيه مباحاً من قبل . وهو حكم ثان للخمرة غير حكمها الذي دل عليه الخطاب الاول ، حتى اذا نزل قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » امتنع عنها قوم وشربها آخرون لما دل عليه المدح والقدح من التخيير في آنٍ واحد ولكلٍّ وجهة ولكن وجهة القدح كانت اشدَّ . ثم لم يزل الامر كذلك حتى لحق الخطاب الرابع فكان حكمها التحريم مطلقاً وامتنع القوم عن شربها اجمعون ، وذلك قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

فهذه اربعة احكام تعاقبت عَلَى الخمرة بتعاقب الخطابات الدال بعضها عَلَى رفع حكم بعض : فاباحة مطلقة ، ثم اباحة مقيدة ، ثم تخيير في مطلق التحريم ، ثم تحريم مطلق

اذا عرفت هذا وتحقق لديك وقوع النسخ في امر واحد وفي شرع نبي واحد مرات متعددة فلا بد من التنبيه هنا عَلَى امور لتتضح لك حقيقة معنى النسخ في الشرائع وتتجلّى لك الحكمة البالغة من ذلك في التشريع ثم تدحض ما عسى ان يرد عليك

من ضلالات ذوي الشبـه او وساوس اهل السذاجة والجمود فنقول :

الامر الاول : قد تبين لك من حد النسخ ان استمرار الحكم الثابت مشروط بعدم لحوق خطاب يرفعه فرفعه بخطاب يلحقه وصف من اوصافه فاذا ما رفع حكمُ خطابٍ بآخر هل ترى هنالك غير موصوف قد اخذ صفته ؟ واي محذور في ذلك ؟ فان الكتابة مثلاً وهي صفة لزيد الكاتب انما تظهر فيه عند ارادته فمباشرته اياها فاذا ما اراد ذلك وعمد الى رق ينمقه فهل من انكار عليه ؟ ام هل يخرجه عدم مباشرته الكتابة بالفعل عن كونه كاتباً؟

الثاني : ان اطلاق الحكم لا يلزم الاستمرار عليه ابداً فان السيد قد يأمر عبده بالقيام مثلاً ويطلق له الامر اطلاقاً غير مقيد بوقت خاص ومدة معينة عند العبد ولكنه مقيد بهما عنده . ثم يأمره بالقعود عند ما يرى مصلحته في ذلك وانما ابهم عليه الامر ابتداء من غير تخصيص وتعيين ليستمرَّ عَلَى الامتثال لان مصلحته كانت آنئذٍ في القيام لا في القعود

الثالث : ان رفع الحكم بخطاب آخر لا يلزم منه الاستبانة بعد الجهل ، بل هو نتيجة العلم بما تقتضيه المصلحة كما عرفت من

امر السيد وعبده : اذ امره بالقيام لما كانت مصلحته فيه حتى اذا تغيرت امره بالقعود وهو يعلم مدة مصلحته فيهما ويرى من المصلحة ان لا ينبهه عليها فلا يلزم من جهل العبد بذاك ان لا يكون به السيد عالماً

الرابع : ان الطفرة محال، والتدرّج في الامر حسبما يقتضيه مما تقضي به الحكمة . والنسخ في الاحكام عبارة عن تحويرها تدرجاً الى الغاية المطلوبة كالطبيب يأمر مريضه بالحمية مثلاً ثم يرخص له شيئاً فشيئاً يسير مع قابلية مزاجه المتطوّر من آن الى آن لتحصل النتيجة المطلوبة وهي الشفاء ، ولو اتاها طفرةً لما امن من عروض النكس فردِّ الفعل ثم ضياعِ المطلوب . وما اشبه التشريع بالتطبيب : هذا لشفاء الاجساد . وذاك لشفاء الارواح

الخامس : ان الحكمة تقضي بملاحظة الآمر قابلية المأمور ، والقابلية نتيجة تطوير الايام والعصور ، وهذه على استمرارها غير قارّة الذات، وانما هي بنت التحوّل والانتقال، والقابليات والاطوار تتلون بلونها من آن الى آن كالماء بالاضافة الى الاناء ، فالنسخ عبارة عن اعطاء تلك القابليات المتحوّلة والاطوار المنتقلة حقّها ، رعايةً للمصلحة وحفظاً لاسّ القصد وليس فيه تغيير او تناقض ، بل هناك احكام مستقلة ظهرت على تراخٍ في ايامها المقتضية

واجلها الموعود. ومن اجل هذا المعنى نفسه وهم من وهم فانكر وقوع النسخ مطلقاً وما فعل شيئاً الا ان وافق في المعنى وخالف فى التسمية واللفظ

السادس : ان النسخ اذا كان عبارةً عن رفع حكم خطاب بآخر وكان نتيجته اختلاف القابلية والتطور رعايةً للمصلحة باعطائهما حقَّهما وهما — اعني القابلية والتطور — تبع للايام والقرون فهو اعني النسخ بالوقوع في قرون متباعدة اجدر منه بالوقوع في ايام متقاربة . وشتان ما بين العصرين : عصر موسى وعصر عيسى عليهما السلام ، ثم شتان ما بين عصريهما وعصور من تقدمهما وبين العصر الذي ظهر فيه النبي محمد الذي اثبتنا نبوَّته في التمهيد الثاني بالادلة القاطعة والبراهين الساطعة

فكون شريعته « ص » ناسخةً لما تقدمها من الشرائع امر يجب عَلَى العقول المفكرة ان لا ترتاب فيه ، وعَلَى الافكار النيرة ان تأنس به ، ثم عَلَى النفوس المهذبة ان ترتاح اليه كلُّ الارتياح لانه جريٌ عَلَى سنن الكون وقانون الحكمة وفلسفة الحياة : فالدور الحجري غير الحديدي والدور الابتدائي للانسان غير دوره الانتهائي بالضرورة

والذى ينور المسئلة احسن تنوير ان محمداً « ص » لم يكن

ناسخاً لشرع من قبله في معظم الاحكام، بل في بعضها مما فرق بينهما كرُّ العصور ومرُّ الدهور وما احدثه ذلك من الاختلاف في التطور والقابلية. والى مثل هذا يشير قوله عليه اتم صلاة وسلام: انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق. فان من المعلوم ان الاتمام تجديد في الوجود وزيادة فيه لا ايجاد وتأسيس

قال الامام الغزالي حجة الاسلام «ض» في كتابه المسمى بالاقتصاد في الاعتقاد بعد كلام يناقش فيه بعض الملحدة الحساب قال: هكذا ينبغي ان يفهم هذا المقام فإن ورود النبي ليس بناسخ لشرع من قبله بمجرد بعثته ولا في معظم الاحكام ولكن في بعضها كتغيير قبلة وتحليل محرم وغير ذلك وهذه المصالح تختلف بالاعصار والاحوال

التمهيد الرابع

في انه «ص خاتم الانبياء، وان في شريعته الكفائة لذلك

عرفت بالبرهان والدليل ان محمداً نبي والآن ندّعي انه خاتم الانبياء ونثبت لك ذلك من طريقين:

الطريق الاول: ان الانبياء لا يجوز عليهم الكذب لانهم خلفاء الله في ارضه وامناؤه على وحيه وخيرته من خلقه، والكذب

من خلق الاشرار لا الاخيار ومدعاة لعدم الثقة بصاحبه وعدم الاعتماد عليه ثم لسوء الظن فيه والتفرق عنه مما ينافي العلة الغائية للنبوّة ، بل يوجب نقض الاستخلاف ثم انتقام المستخلف ممن عهد اليه بالامر فنكث العهد وخان الامانة واغفل الواجب فاتبع هواه دون امر الله قال تعالى « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بَلِّغْ مَا اوُحِيَ إِلَيْكَ وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَكَ » وقال « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْاَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » وقال « وَمَا انَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » وقد ثبت لديك في التمهيد الثاني ان محمداً نبيّ ، فيحصل من هاتين المقدمتين ان محمداً لا يجوز عليه الكذب ، كيف وقد كان اعداؤه يشهدون له بذلك حتى كانوا يدعونه « الامين » لفرط صدقه وامانته وهو قد اخبر عن نفسه فيما روى عنه انه خاتم النبيين وقال لعلي رضي الله عنه: اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هرون من موسى الا انه لا نبيّ بعدي

وكذلك قامت عليك الحجة ان القرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وهذ القرآن المعجز يقول على لسان التبليغ « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبَا اَحَدٍ مِنْ

رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ »

الطريق الثاني : ان انهاء النبوّات بختم تتمّ عَلَى يده نواميس التشريع مما تقتضيه المصلحة وتوجبه الحكمة البالغة لان تعدد الشرائع والاديان من بواعث الاختلاف — كَانَ ٱلنَّاسُ امَّةً وَاحِدَةً وَمَا اخْتَلَفُوا الأَمِنْ بَعْدِمَا جَاءَتْهُمُ ٱلبَيِّنَاتُ — وفرط الاختلاف بين العباد يخل بنظام الكون ويمزق الشمل من الهيئة الاجتماعية كلّ ممزّق حتى يسدّ عَلَى الامم والشعوب سبل الحياة، والزمن الذي بعث فيه محمد «ص» كان صالحاً لان يدور الفلك بمثل هذه الدورة اذ كانت الشرائع والاديان قد اخذت القسط الكافي لظهور الحكمة المكنونة في قوله عزت كلمته « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ... » وقوله « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » والزيادة في ذلك اخلال للنظام وتشتيت للشمل فوق الارادة فبعث الله محمداً «ص» وجعله خاتم النبيين ؛

فلزم من ذلك (اي من جعله خاتم النبيين) امران : ان تكون بعثته عامة ، وان يكون في شريعته الكفاءة لذلك (اي لكونه ختماً) وكذلك كان : قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً

لِلنَّاسِ » وقال « اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْاِسْلَامَ دِيناً » واي حاجةٍ تعوز بعد الكمال واي عمل يكون بعد الاتمام ؟

فان قيل : الم تكن تزعم ان مناط اختلاف الشرائع ونسخ بعضها بعضاً هو اختلاف العصور والقرون بما يوجبنه من التبدل والتحول في القابلية والاطوار ؟ فكيف ساغ لك ان تعرض عن هذا المقتضي وتستثني محمداً من هذا القانون ثم تجيز له ان تكون شريعته ختماً وبعثته عامةً ؟

قلنا : من اجل ذلك كانت شريعته واسعة النطاق غزيرة الماده فسيحة المجال مترامية الاطراف بحيث تنطبق عَلَى روح كل عصر مهما تنوعت تطوراته في مناهج الرقي الصحيح وعلى روح كل امة مهما اختلفت فيهن القابليات في سبل الشرف والفضيلة - ولولا خوف الاسهاب لاتينا من ذلك بتفاصيل وافية وآيات بينات لا تدع عَلَى بصر غشاوة ولا على قلب غباوة ، ولكنا نكتفي من ذلك بان نستلفت النظر الى بعض الامور من كليات هذا الدين الحنيف مما اهلّه ان يكون صالحاً لكل الامم والشعوب في كل القرون والعصور وكان في تدبر مغامزه كفاية لّلبيب اذا ما اتخذه مقياساً للوقوف عَلَى كنه عظمة هذا الدين المبين ومعياراً

لبقية ما جاء به من الهدى والنور مما يصلح ان ينقذ كل امة من وهدة الضلال ويمزق حجب الظلام في كل العصور

وقبل الخوض في ذلك لا بدّ من استلفات الانظار الى الزمان الذي ظهر فيه محمد «ص» وماذا كان نصيب الاديان السماوية يومئذٍ من معترك الحياة، فنقول:

يوم بزغت شمس الحقيقة المحمدية لم يكن في الارض من خبر السماء غير الانجيل والتوراة وقد شب عمرو الزمان عن طوق كليهما وضاق بهما النطاق ان يتسعا لما اتسع له صدر الايام

اما الانجيل فمواعظ وحكم وارشادات واخلاق، لا زواجر وحدود وقضاء واحكام. وما كان اهله الا بمعزل عن شؤون الحياة وتطوير الايام وتكوين الشعوب وتقلبات البسيطة في مصالح الامم ومرافق الاجتماع، فما ترى الا صوامع شيدت عَلَى دعائم النسك وبيعاً اسست عَلَى حب الدعة والسكون ثم ديوراً غاصة بالقسس والرهبان لا يهمهم الا ضرب النواقيس وتقديس الصلبان، يلبسون الصوف ويأكلون البقول ويشربون ما يشربون بدعةٍ وسكينةٍ وامنٍ وامانٍ، ولو ضربت الخد الايسر من احدهم لحوّل لك الخد الايمن كما يأمره انجيله. ومن

وراء جدران الديور والصوامع قبائل وشعوب تقودهم الاهواء وتسوقهم الغرائز وينفخ في مناخرهم الشيطان ، يأكل بعضهم بعضاً ولا يسئل الظالمون عما يفعلون . فهم في حاجة الى من يقوّم اودهم ويكبح من جماحهم ويرتق لهم الفتق ويمهد لهم سبل المصالح ، يثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم وكذلك يحملهم على الصراط المستقيم ، فيريحهم من العناء وينقذهم من وهدة الشقاء . ولكن أنى للمعتكف في زوايا الديور والصوامع لا يعرف الا ما انضمت عليه جدرانها ان يصلح من شأن المعتسف من ورائها ؟ وبينهما حجاب ، وما لبعضهما الى بعض سبيل

واما التوراة : فان نورها الذي استطاع في القرون الاولى ان يمزق شيئاً من غياهب الفرعنة في سماء مصر ويقضي على جبروت العمالق في الارض المقدسة كان في مبدأ القرون الوسطى قد تضائل حتى لم يعد في استطاعته ان يضيء لبنيه وذويه ليلم لهم شعثاً ويضم شملاً — فتراهم قد باءوا بغضب من الله متشردين متشتتين تحت كل حجر ومدر لا يجمعهم سلطان ولا تمثلهم راية — فكيف ينشر جناحه على من سواهم ممن يخالف اطوارهم وينافي تقاليدهم وتنبو قابلياتهم عن مغامزه ومغازيه لتنفذ فيهم احكامه وتقام حدوده على حين ان لا بد من صلة بين الامم وشرائعها

ولا بد لاقامة الحدود من زعيم له سلطان ؟

ثم من وراء ذلك مجوسية ووثنية : فنار توقد لتعبد وايجار تنحت ثم يركع لها ويسجد ، ثم دهرية معطلة ملأها كفر وطفاحها كفران والفوضى ضاربة اطنابها والانسان يأكل الانسان ، ظلم وظلم واحكام من غير حكم ، لا ايمان ولا ايمان ولا علم ولا فن ولا صنائع ولا عرفان ، جهل تسح غمائمه فتنبت الشقاء وغرور تسجع حمائمه فتثير البلاء ، اوهام سيطرت على العقول فكانت عقالا ، وخرافات طمست على نور الهدى فعاد ضلالاً ، عبيد كفروا النعمة فاسخطوا مولى كريماً ، وابقوا من الربقة فجاؤا امراً عظيماً ، ارض استقلت عن السماء كأن لم يكن بينهما سبب ممدود ، ومخلوق كفر بالخالق كأن لم يكن بينهما فضل الموجد على الموجود : ظلمات بعضها فوق بعض حتى كاد يلعن اهل السماء سكان الارض

فاذن الله ان يبتسم فجر الشريعة المحمدية حتى استطارت انواره في الآفاق فجلت الغياهب ومزقت ستار كل ظلام

فلله ذاك الفجر وحبذا انواره ولقد كان مبدأ سعادة الانسان يوم اشرقت على هياكل التوحيد آثاره وانه النور الذي لن تغرب شموسه ولن تغيب اقماره ، خالد ابداً ومقيم سرمداً ، مهما اراد به

شراً اعداؤه الحاسدون وحسّاده المنكرون • يُرِيدُونَ اَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِاَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ اِلَّا اَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

كيف لا ، وهو قائم عَلَى قواعد راسخة ودعائم شامخة واوتاد كالاطواد لا تزلزلها العواصف ولا تنال منها الايدي مهما تعاقبت الاجيال واختلفت الايام والليالي وكذلك شأن الجبال ، كما يتضح لك مما نذكره الآن من بعض كليات هذا الدين الحنيف وفاء بالوعد وجلاء للابصار ثم شفاء لما في الصدور ، فنقول :

منها : الاعتدال في التشريع، والقصد والتوسّط في الامور

كان الانجيل والتوراة عَلَى طرفي نقيض من فرط الشدة واللين فجاء القرآن مثاني بين وعد ووعيد : لا يأخذ بالخناق فيسدّ باب الرجاء اذا ما اوعد ، ولا يلقى العنان عَلَى الغارب فيرفعَ سوط الخوف اذا ما وعد ، ولكنما يبتغي بين ذلك سبيلاً

تهاون اهل الانجيل في شأن التطهير حتى اكتفوا بماء العماد ، وشدد اصحاب التوراة حتى لم يرتضوا غير القطع طهوراً اي قطع محل النجاسة من الثوب مثلاً • فاتى الشرع المحمدي وسطاً : فعدّ

النظافة من الايمان وابى ضرر القطع والاتلاف وجعل الماء طهوراً من كل حدث وخبث

تساهل اصحاب الانجيل في التوبة من الذنب حتى التمسوا مغفرة المخلوق في معصية الخالق،[1] وشدد اهل التوراة حتى عوقبوا بقتل النفس توبةً واستغفاراً، فجاء الدين المحمدي بين ذلك قواماً: فما كان لله ردّه اليه فقال «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

---

(١) هي مسئلة الاعتراف. ومستندهم فيها قول الانجيل «ما حللتموه في الارض كان محلولاً في السماء». وقد بحثت مع بعض البطارقة وغيرهم من رؤساء الدين المسيحي في هذه المسئلة وافهمتهم ان منطوق الآية لا يدل على ذلك باعتبار التركيب فان الحلّ غير الحلّ ولا ضرورة تدعو الى هذا المجاز ثم ليس هناك من قرينة تدل عليه، ولمَ لا يجوز ان يكون معنى الآية ان ما تفعلونه في الارض له صورة في السماء كأنها هو، كذلك تحفظ عليكم اعمالكم ليجزى كل امرئ بعمله ان خيراً فثواباً او شراً فعقاباً. وتفسير الحلّ بالفعل اقرب من تفسيره بالحلّ كما يقال: مسئلة كذا كان حلُّها على شكل كذا. ثم قلت: اجل: في الانجيل آية اخرى: اعترفوا بخطاياكم. ولكنها لا تدل على الاعتراف بشكله الموضوع؛ بل يكفي لصدق الآية في امتثال امرها ان يبتهل المذنب الى مولاه ثم يعترف بخطاياه ويسئله المغفرة ابتداءً من دون ان يتوسط بينهما عبد ربما كان له من تلك الخطيئة امثالها وما اخال المسئلة الا وضعية اكثر من انها شرعية. فكان الجواب انها كذلك اي وضعية بمعنى انها من تعاليم الكنيسة المعبر عنها بالتعاليم المسلمة اي التي يتلقاها علماء الكهنوت بعض عن آخرين

وَيَعْفُو عَنِ ٱلسَّيِّآتِ» وقال «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» وما كان لعباده عَلَى عباده جعله قضاء تصحبه الحكمة ويلزمه العدل وينفذه السلطان ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ولا يظلم ربك احداً

افرط بنوا الانجيل في الحِلّ حتى جعلوا رائده النفس فوقعوا في بعض الخبائث وفرّط بنوا التوراة في التحريم حتى حرموا انفسهم من كثير من الطيبات فجاء القرآن عَلَى غير هذا وذاك: فاحلّ عن حكمة وحرّم عن حكمة وجعل الاباحة اصلاً [1] والحرمة فرعاً ، ثم ناط التحريم بتوليد المفاسد حساً او معنىً وصرح بالحكمة من ذلك في موضع ولوّح في أخر وترك الامر للزمان فيما عسى ان يأتي بيانه يومئذٍ — اي يوم نزل القرآن — غريباً كما اشار الى شيء من ذلك ابن عباس رضي الله عنهما [2] . وبعد هذا وذاك نادى بلسان التبليغ «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ» وبالجملة فان امثال ذلك كثير مما لو

---

(١) الاصل في الاشياء الاباحة . قاعدة اصولية مأخذها قوله تعالى وخلق لكم ما في الارض جميعاً

(٢) كان يقول فيما روي عنه ما معناه : ان في القرآن معاني سوف تظهر بتعاقب العصور . ولولا ضيق المقام لجئنا من ذلك بامثال غير يسيرة

سردناه لطال المقال وضاق المقام ، ولكن خير مرآة تمثل كل هاتيك المثل قوله تعالى « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » وقوله « مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ »

واذا اتضح ان في الدين الاسلامي اعتدالاً في التشريع وتوسطاً في الامور لزم ان يكون دين الفطرة ونظام الطبيعة وشريعة الاصلاح لان العوارض في مظاهر الحياة لا تخلو عن الافراط او التفريط — وهما مفسدة — ثم عن ثالث بينهما نسميه بالاعتدال وهو الذي لا يتم نظام العالم دونه مهما اختلفت الادوار والاطوار كالمحور للدائرة لا ينتظم لها من دونه دوران ، فدين الاسلام باعتداله وتوسطه منطبق على سنن الكون وما كان كذلك فهو خالد سرمد ما دامت الاكوان . من اجل ذلك كان دين الفطرة كما قال تعالى « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » وفي الحديث الشريف : ما من مولود الا و يولد على الفطرة ثم ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه

ومنها : كونه بشيراً اكثر منه نذيراً

الاديان قوة تحكم الضمائر وتسيطر على النفوس تحكم وثاقها

جاسلاك من نور وطَوَلٍ من نار، والقلب مرآة التقلب ولذلك سمي قلباً، والنفس مفطورة عَلَى حب الاطلاق وبغض التقييد ويبعد عَلَى المأسور ان يرتاح الى آسره . فلا بد هناك من صبغة تقرب البعيد وتؤنس النافر وتلطّف المشاهد وتخفف عَلَى المأسور في يد الآسر، وخير رائد النفوس الرفق . واجمل مؤنساتِ القلوب بشراها . وبهذا اتى دين الاسلام؛ قال عليه الصلاة والسلام : يسّروا ولا تعسّروا بشّروا ولا تنفّروا . وفي الكتاب المجيد : قُلْ يَا اَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ . وفي الحديث الشريف : اوغلوا في الدين برفق فان المنبّت لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى . وقال : لا تشادّوا هذا الدين . ثم ندّد باهل التوراة في قصة البقرة فقال : شدّدوا فشدّد الله عليهم

ومنها: مراعاته للزمان والمكان وما يلدانه من عرف وعادة

الانسان ابن التطور، والزمان والمكان من بواعثه، والعرف ما حصل عليه التعارف فانكرت النفوس سواه، والعادة طبيعة ثانية والطبيعة لا تقاوم، وان في الشرع المحمدي مكانة للزمان والمكان والعرف والعادة المتطورين عنهما، قد عرف لهذه المؤثرات الاربع مقداراً يدور عَلَى محوره فلك كبير ودائرة واسعة لا تضيق عن شيء من بواعث الحياة ومصالح العباد مما يعود عليهم بالفضيلة .

ومن تصفح كتب الفقه واقوال الفقهاء بتدبر وامعان تجلت له هذه الحقيقة بكل مجاليها فانك ترى المتأخرين منهم يخالفون المتقدمين في شيء من الفروع ثم يقولون «لفساد الزمان» مثلاً يتخذون ذلك سنداً كمسئلة الحجاب واضرابها[1]. وقضى عمر «ض»

---

(١) من المقرر في كتب الفقه ان الوجه واليدين ليسا بعورة والا لوجب سترهما في الصلاة حين تناجي المسلمة ربها والخالق اولى بمظاهر الاجلال من المخلوق. ولكن فساد الزمان وخشية الفتنة حملا المتأخرين على التشديد في الحجاب بشكله المعهود ولا اريد بشكله المعهود تلك الازياء التي يتفنن في وضعها كل يوم بعض من يسوقهن النقص في التربية الى التبهرج الذي لا ينقص حكمه عن التبرج فذلك ما تنبو عنه حكمة التشريع ويبرأ منه المتشرعون. وهذه مسئلة من اهم المسائل الاجتماعية يطول البحث عنها وليس هذا محلها. ولكن غاية ما نقوله هنا: ما اجمل الحجاب الشرعي اذا اصلحت التربية وحسنت الاخلاق. تلك عائشة الصديقة ام المؤمنين «ض» كانت من اعظم رواة الحديث وكثيراً ما كان يرجع اليها الاصحاب في معضلات الامور حتى خاضت غمار السياسة وركبت المفاوز واذكت نيران الحروب وهي التي اول من امرت واخواتها بالحجاب وفي بيوتهن نزل وما خالفت امر الله فيه طرفة عين وما كانت معاذ الله لتنقص من امره شيئاً: كذلك كانت المسلمة بل امهات المؤمنين يوم كانت التربية صحيحة وكانت الاخلاق فاضلة. وماذا على المسلمات لو كنّ على قدم امهاتهنّ اللائي ربين في حجر النبوة ومهبط الوحي؟ ام يريد البسطاء ان يترفعوا بهنّ الى منزلة اعلى! ومقام اسمى! لقد كلفوا انفسهم اذن شططاً. ولنختم البحث بهذين البيتين من قصيدة في الوطنية والاجتماع.

في المشتركة بالتشريك في عام وترك التشريك في غيره فقيل له: ما هكذا حكمت في العام الماضي. فقال: تلك عَلَى ما قضينا وهذه عَلَى ما نقضي. واكبر من هذا حكمه «ض» بوقوع الثلاث دفعةً عَلَى خلاف ما كان عَلَى عهد الرسول وخليفته الاول زجراً للناس اذ تبدلت اطوارهم فخالفوا السنة في الطلاق واكثروا من هذه البدعة. فاراد تقويمهم وردهم الى السنة والكتاب اذ «اَلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»، وفي ردهم الى ذلك يأمنون من خطر الندامة على ما فرط منهم فيما لو ثابت لهم احلامهم وتاقت الى الرجعة نفوسهم. وبذلك يأخذون من حكمة هذا الحكم الشرعي بقدر المصلحة التي شرع من اجلها ثم يخففون من غلوائهم في ركوب ما كان ابغض الحلال الى الله [1]. وكذلك عمر خالف ابا بكر

نعم اللواتي زادهنَّ من التقى ومن العقول لجيدهنَّ عقودُ
يرفلن من نور العفاف بحلةٍ تاهت بعزتها الثياب السودُ

(١) يشير الى الحديث الشريف. ابغض الحلال الى الله الطلاق. فان قيل: فلماذا شرعه الله اذن لعباده وشرع الشيء نتيجة استحسانه وشتان ما بين البغض والاستحسان. قلنا الطلاق اثنان: ماتدعو اليه الضرورة وتكون فيه المصلحة. وما لا يكون فيه شيء من هذا ولا ذاك وانما يكون فائده الحمق وسائقه السفه كما سموه باعتبار هذا النوع بين السفهاء. وهذا هو الذي يبغضه الله. والنوع الاول هو الذي من اجله كان الطلاق مشروعاً كما اذا حصل نفار بين الزوجين لاي سبب كان فاصبح كل منهما مدعاة لشقاء

رضي الله عنهما في سبي اهل الردّة فلما توفّي الخليفة الاول وافضت النوبة اليه رد النساء والذراري الى عشائرهما فاختلف الحكم في زمانين والقضية واحدة

كل هذا يفعله عمر رضوان الله عليه ثاني الشيخين ومن اخصّ اصحاب الشارع «ص» والذي زين اشرف صحيفة من تاريخ الاسلام بحسن سياسته وفرط عدالته

ورفع الى ابي يوسف «ح» مسلم قتل كافراً فحكم عليه بالقود فاتاه رجل برقعة فالقاها فاذا مكتوب فيها :

يا قاتلَ المسلمِ بالكافرِ ... جرتَ وما العادلُ كالجائرِ
يا من ببغدادَ واطرافِها ... من علماء الناسِ او شاعرِ
استرجعوا وابكوا عَلَى دِينِكم ... واصطبروا فالاجرُ للصابرِ
جارَ عَلَى الدينِ ابو يوسفٍ ... بقتلِهِ المؤمنَ بالكافرِ

الآخر بينما يجب ان يكون من اكبر وسائل سعادته لاسيما وقد صرح القرآن بان مناط الزوجية ان يكون بينهما رحمة ومودة. وبهذا تدحض كل شبهة يوردها المتمخرقون على دين الاسلام في مسئلة الطلاق التي يحسدالمسلمين عليها الرأي العام من المسيحيين بالرغم عما يتشدق به ارباب الاهواء . ولو عانى هولاء الاجتماعيون النظريون ما يعاني اولئك الاجتماعيون العمليون لوقفوا معهم في مصافّ الحاسدين ولعلموا ان النظر غير العمل وان حجتنا في هذه المسئلة الاجتماعية الكبرى هي العمل والعمل هو المعول عليه في الاجتماعيات

فدخل ابو يوسف عَلَى الرشيد واخبره الخبر واقرأه الرقعة فقال له الرشيد : تدارك هذا الامر بحيلة لئلا تكون فتنة . فخرج ابو يوسف وطالب اصحاب الدم ببينة عَلَى صحة الذمة وثبوتها فلم يأتوا بها فاسقط القود . قال الامام الماوردي بعد نقل هذه الحكاية: والتوصل الى مثل هذا سائغ عند ظهور المصلحة فيه

وامثال ذلك في الفروع من المسائل الاجتهادية رعايةً للزمان وحفظاً للمصلحة اكثر من ان يحصى ، والمرجع اصل واحد: قولهم « تتغير الاحكام بتغير الازمان »

تنبيه

لا يذهبنّ الوهم هنا الى ان الامر على اطلاقه فنكون من الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً كما وصفهم الله في كتابه المجيد . بل هناك تفاصيل ليس هذا محلها ، اليها المرجع وعليها المعوّل لقوم يعلمون . ولا بأس ان نتعرض لكلمة مختصرة في ذلك تدفع هذا الوهم ونعزّز ما لاجله سقنا ذاك الحديث فنقول :

مسائل الدين تنقسم الى ضروريات ونظريات ، فالاولى لا

يتغيّر لونها ولو تعاقب عليها الف إناء حتى ان جاحدها ليكفّر، كالحجّ والصلاة والصوم والزكاة مما بُنيَ عليها الاسلام فكانت اصولاً . والثانية هي التي تكون مثار غبار الاجتهاد عند تزاحم الادلّة وتصادم المآخذ في مضمار البحث والاستنباط ، وهي الفروع التي تتعلّق بتلك الاصول واضرابها ، كتعديل الاركان في الصلاة مثلاً : أواجب ام فرض ؟ واكلِ من اصبح غير ناوٍ للصوم : تجب عليه الكفّارة ام لا ؟ وامثال ذلك من الفروع التي لا تكاد تحصيها اقلام السادة الفقهاء عَلَى فرط تتبّعهم واستقرائهم حتى الفرضيات فيما القوا وصنّفوا من المجلدات الضخام . بَيْدَ ان الدستور الاعظم فيما هنالك قولهم « لا مساغ للاجتهاد في معرض النصّ »

ثم النصّ اثنان [1] : منه ما كان مرتباً عَلَى العرف ، ومنه ما كان العرف مرتباً عليه ، فهذا الثاني لا يمكن ان يزلزله شيء مهما دارت الادوار وتبدّلت الاطوار . هكذا ينبغي ان يفهم هذا المقام

---

(١) هذا التقسيم للامام ابي يوسف رحمه الله كما استفدناه من سماحة الحبر الكبير موسى كاظم افندي شيخ الاسلام الاسبق خلال بحث بيننا فقهي طويل اذ كنت في العاصمة وكان على منصة المشيخة الاسلامية قبل اربعة اعوام وبضعة اشهر

ومنها : التيسير ورفع الحرج

للنفس حالتا قبضٍ وبسط وعسرٍ ويسر. ومن البديهي الذي لا ينكره احد وله عليه شاهد من نفسه ان النفوس تأبى الحرج وتطمئنّ حيث تجد اليسر . وبذلك جاء دين الاسلام : قال تعالى « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقال « مَا جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » فما دام التيسير ورفع الحرج يكتنفان هذا الدين القويم فماذا عسى ان يؤثّر عليه اختلاف الليالي والايام ؟

ومنها : مزج الدين بالسياسة وما يتوقف عليه نجاحها

اشرف مظاهر الوجود الحق والحقيقة ، والدين — من حيث انه دين — لا يعدوهما . ثم الحق ابن القوة ، ولا قوة من غير ملك ، ولا ملك من غير سياسة ، ثم لا نجاح للسياسة الا باخذ الامة قسطها من وسائل الحياة طبيعيةً كانت ام وضعيةً . فمن ثمّة كان دين الاسلام بكل مظاهره سياسياً اجتماعياً ، مادياً ادبياً عمرانياً اخلاقياً ، ترى هذه العوامل من الحياة متسربةً في كل مظاهره — حتى في صنف العبادات منه كما سيتضح لك في « المقصود » عما قريب — على حين انك ترى غيره من الاديان خلواً من امثال ذلك

تمحيص

ومناقشة حساب

الدين شيء واهلوه شيء آخر ، فلا تلزمه تبعة المقصّر منهم ، بل تحميله تبعة ذويه ضرب من الجهل بالمنطق لفقد الملازمة بينهما في ذلك : كما اذا القى سيد الى عبده باوامر وزواجر ثم عصى العبد مولاه فلا أتمر ولا ازدجر ، فهل من الروّية والانصاف ان تحمل تبعة عصيانه عَلَى سيده الذي امره ونهاه ؟ فاذا ما قصر المسلم فاقتصر من دينه عَلَى صنف العبادات فقط فهل يلزم من ذلك ان لا يكون في الدين غيرها ؟ ام هل من الحكمة والتعقل ان تحمل تبعة صاحب الدين من ذلك التقصير عَلَى الدين نفسه ؟ اما انها لقياسات فاسدة لا يقول بها الا كل عميّ غويّ يمخرق بها كيما يتخذها سلّماً لغاية دنيئة وهوىً ممقوت ، كالذين يندّدون بالمسلمين من علماء الغرب وساسته ، فيحملون تقهقرهم في معترك الحياة عَلَى دينهم الحنيف ، يزعمون انه هو العقبة الكئود في سبيل رقيّهم ، وهكذا يحمّلون الدين تبعة اهليه تشويهاً للحقائق وتمويهاً على البسطاء ثم طعناً في الدين وذويه يرشقونهما بسهم واحد

وفي مقدمة القوم علماء الانكليز وساستهم ثم رسلهم الذين ينفقون عليهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في تلك

السبيل ، يدسّونهم بين المسلمين كيما ينتشروا فيهم انتشار الجراثيم السامة في الهواء . ولقد افرطوا في ذلك حتى ان ساستهم لتمثل هاتيك الادوار المشوّمة يخطّونها بقلم مبشر ديني عَلَى منصّة معتمد سياسي . ولقد بلغت بهم الوقاحة ان ينشروا مطاعنهم عَلَى دين الاسلام بين ظهراني المسلمين في عقر دارهم التي لم يمتلكوا ناصيتها بعد ولا حكّموا فيها الوثاق ، ثم ينشرون هاتيك المطاعن بصفتهم سياسيين : كما اتّفق لكرومر في رسالته « مصر الحديثة » يوم كان معتمد السياسة البريطانية في مصر البائسة . والى ما مخرق به اللورد يساق الحديث في هذا التمحيص :

ان الهدف الوحيد الذي فوّق نحوه اللورد سهم قلمه في تلك الرسالة هو المقارنة بين الشريعتين العيسوية والمحمدية وان السبب في رقيّ المسيحيين وانحطاط المسلمين انما هو دينهما

نحن نجلّ الاديان [1] ان تتخذها هدفاً لسهام الطعن ثم نجلّ

---

(١) ولهذا عند ما بحثنا عن اختلاف الاديان جعلنا منشأه اختلاف العصور لا قصور بعضها عن بعض . وعند ما قارنّا بين الاديان الثلاثة كنا نقول « تساهل اصحاب الانجيل وشدد اهل التوراة ، افرط بنوا الانجيل وفرط بنوا التوراة » مثلاً نسند الفعل الى ذوي الدين لا الى الدين نفسه

انفسنا عما رضيه لانفسهم كرومر وزملاؤه من توجيه المطاعن الى الدين نفسه ، ولكنا نناقشه واضرابه الحساب تمحيصاً للحقيقة واثباتاً لدعوانا آنفاً من ان غير الاسلام من الاديان خلو من السياسة وما يتوقف عليه نجاحها من عوامل الحياة ووسائل العمران

المجال هنا اضيق من ان يسع البحث على وجه التفصيل ، ولكن نسئل اللورد ومن كان عَلَى شاكلته بعض الاسئلة ثم ننادي في القوم هل من مجيب ؟

نسئلهم : متى كان عهد المسيحيين بالرقي ومتى كان عهدهم باعتناق هذا الدين ؟ هذا التاريخ بين ايدينا وايديهم يشهد ان بين العهدين بوناً شاسعاً ، فلو كانت المسيحية هي السبب في رقي المسيحيين لتمتعوا بهذا الرقي منذ بدء اعتناقهم اياها — ضرورة ان الاسباب لا تنفك عن مسبباتها — ولكن التاريخ يشهد بخلاف ذلك

نسئلهم : عن عهد المجازر ومحكمة التفتيش وهاتيك الادوار المظلمة والهمجية المستحكمة الحلقات يوم كان القوم يأكل بعضهم بعضاً قرابينَ عَلَى مذابح الاهواء : ألم يكونوا يومئذٍ مسيحيين ؟

نسئلهم : ماذا كانت قارّة اوربا قبل احتكاك الغرب بالشرق في الحروب الصليبية وقبل ما قبست من الاندلس شعاعاً ؟ أكانت

منبثق انوار ، ام مجتلى ظلم وظلمات ؟ ثم ليشهدوا عَلَى انفسهم : ألم يكونوا يومئذٍ مسيحيين

نسئلهم : لماذا خلع ساسة الفرنسيس ومفكروهم ربقة الدين خطموا الاكليروس وقوّضوا دعائم الفاتيكان سعياً من وراء حياة راقية وعيشة راضية ؟ وفي اي يوميهم كانوا اوفر حظاً من الرقيّ واوفى سهماً : يوم كانوا تحت سيطرة الدين المسيحي ، ام يوم تملّصوا من ربقته فعاشوا احراراً ؟ ان المسيحي الافرنسي ليشهد بخلاف ما يدعيه اخوه الانكليزي ، وان التاريخ ليعضد الافرنسي بكل معانيه

نسئلهم : ألم يك دين المسيح قبل دين الاسلام بستة قرون؟ فايّ رقيّ يومئذٍ هدى اليه بنيه ثم اهداه الى بقية الامم والشعوب ؟ ولماذا ضاق صدره خلال ذاك الزمن الطويل عما اتسع له في الزمن الاخير ؟

نسئلهم : — والتاريخ بيننا شاهد عدل — هل ينكرون علينا — معاشر المسلمين — ما جئنا به من الخوارق يوم اعتنقنا هذ الدين وما كنا من قبله شيئاً مذكوراً ؟ ام هل لهم شهداء : انهم قد جاؤا بمثل ما جئنا به يوم اعتنقوا المسيحية ديناً ؟ ليستشهدوا « هرقل » من تحت اطباق الثرى ينبئهم انهم مبطلون ، ولا ينبئك مثل خبير

اجل ما من تبعة على دين الاسلام في تقهقر بنيه بالرغم عما يخرق به كرومر وامثاله ؛ وانما التبعة علينا نحن معاشر المسلمين . انه لدينٌ سياسي (١) اجتماعي ، اقتصادي عمراني ، ادبي اخلاقي ، روحاني جثماني ، دنيوي اخروي ، يكفل لذويه سعادة الدارين ، ولكن المسلمين في غمرة ساهون . وهذا ما دعى كرومر وامثاله الى مثل ذاك العدوان الكبير والبهتان العظيم ، ولكن ليثقنّ سكارى الكبر والغرور : انها ليست برقدة اهل الكهف ، بل هناك اجفان آذنت بالفتح ونيام اخذتهم هزة الانتباه والمسلمون اليوم في طور جديد

ومنها : — وهي الغاية التي تقصر دونها الغايات — القاء الحبل على غارب الاجتهاد من حيث يعضده الهدى ولا يقوده الهوى

عرفت في آخر تنبيه مرّ بك ان في الدين مسائل نظرية هي مثار غبار الاجتهاد ، وقد عرفت من قبلُ ان الانسان رهن التطوّر فهو في حاجة الى ذلك ، وما اخالك تجهل ان المصالح

---

(١) كما فصلنا الامر واثبتناه في رسالة « خطبة نادي الشرق » التي نشرناها بهذا الاسم اثناء حرب البلقان وضمناها الدعوة الى « الاتحاد الاسلامي » لما لشعث الشرق عامةً وتوحيداً لكلمة المسلمين خاصةً

تمشي من وراء هذا الاوان دين الاسلام قد القى الحبل على غارب الاجتهاد من امراء الامة وعلماء الملة بردّ المسائل الى كتاب الله وحديث نبيه «ص» مع قسر الامة على اطاعتهما قال تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» واولو الامر هم الامراء اهل التدبير والسلطان ، والعلماء الذين يستنبطون الاحكام من الحديث والقرآن كما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما. فهذان الصنفان من قادة الامة يكفلان دور الارشاد للانسان من ادواره الاربعة و يقومان بواجب الشريعة والدين يعضد بعضهما بعضاً فيما يخصّ الامة والملة من المعتقدات والعبادات والمعاملات ، وليس في الدين من شيء وراء هذه الثلاث

ومن هنا نوّهت الشريعة المحمدية بشأن الامرة على المسلمين اعظم تنويه كما سيمرّ بك تفصيل ذلك ، ومن هنا كان علماء هذه الامة كانبياء بني اسرائيل كما ورد في الحديث الشريف

وحسبنا في مسئلة الاجتهاد حديث معاذ «ض» حين ذهب عاملاً على اليمن ، وما رواه البخاري عن ابن العاص يرفعه الى النبي «ص» من ان المجتهد اذا اخطئ فله اجر واذا اصاب فله اجران ، ثم قوله تعالى «فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا

في الدّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ اِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ »

ومنها : تحكيم العقل وتأويل النقل اذا تعارضا كما قرّره علماء هذا الدين الحنيف

يقال : العقل عقال · بمعنى انه يمنع صاحبه ان يتجاوز الحقيقة عند تصوُّرها ، وهو من هذه الحيثية لا يتبدل بتبدل الاعصار والاجيال · بل هو قائد السعادة ورائد الفلاح في كلّ عصر ومصر وفي كلّ امّة وجيل اذا ما رجع اليه ذووه وقد شحذوا مديته بنور العلم ثم حكّموه في مغامز الآخرة والاولى · ودين الاسلام يرجع بابنائه دائمًا الى التدبّر والتذكّر واعمال الفكر وامعان النظر تحكيماً للعقل وارشاداً بنور هداه فتراه يختم كثيراً من الآي في الكتاب المجيد بامثال قوله « أفلا يعقلون ، أفلا يتذكرون افلا يتفكرون » أفلا يتدبرون القرآن ام عَلَى قلوب اقفالها ؟ هذا بخلاف ما ترى عليه بقية الملل من فرط الانقياد الاصم والتقليد الاعمى لاية كلمةٍ فاه بها كاهن او خطّتها يدٌ في كتاب عَلَى اسم الدين ، حتى انك لترى احدهم اذا الزمته الحجة بتحكيم العقل المجرّد فضاقت به السبل وعميت عليه الطرق اعتصم بحبل العنكبوت واتكأ عَلَى عكاز الاعمى وقال لك : « ان الدين وراء العقل » يقولها ولم يشعر بما يترتب عليها من محذورات ومحضورات ؛ انّا نقول لهذا المسكين =

اولاً : اليس العقل اشرف ما منّ الله به عَلَى عباده؟ فاذا كلفنا بما ورائه أفلا يكون ذلك اسقاطاً له عن مرتبة الاعتبار مما يؤدّي بالقضية الى طرفيْ نقيضها ؟

ثانياً : الاديان تكاليف ، فاذا جاز ان تكون وراء العقل لزم تكليف المجنون والصبي غير المميز . وانه لامر لم يرضه المخلوق في سنّ القوانين الوضعية ، فكيف يرضاه الخالق فيما شرع لعباده من الاحكام الشرعية وهو اللطيف الخبير ؟

ثالثاً : انما يمتاز الانسان عن سائر الحيوان بالعقل ، فاسقاطه عن مرتبة الاعتبار في الاديان تنزيل للانسان عن مرتبة علائه والاديان ارفع مقاماً منْ ان تكون وسيلة سقوط ومُنحدَر هبوط

رابعاً : معنى قولنا « هذا وراء العقل » ان نطاق العقل يضيق عن وسعه ، فالتكليف به يعدُّ فوق الطاقة ضرورةً ، والتكليف بما لا يطاق ظلم محض يجلّ عنه مقام الالوهية

خامساً : اصل الاصول في الاديان الايمان ، ومعناه التصديق بالجنان ، والتصديق بالشيء فرع عن معرفته ، وما كان وراء العقل كان مجهولاً لديه ضرورة انه لا يتعلق به الادراك ، فمن اين يأتي الايمان اذا كان الدين وراء العقل ؟

سادساً : ما كان وراء العقل لا يتأصل في القلب ضرورةً —

مهما تعلّق بنياطه بناموس الارث وسلطة التقليد — وما لم يكن متأصلاً في القلب لا يطمئنّ اليه ، ومناط الايمان الاطمئنان . ولذا توقف في ايمان المقلد بعض العلماء ورفضه آخرون ، والذين اجازوه استندوا الى الضرورة فيمن لا يستطيع الاستدلال من رعاع الدهماء

سابعاً : في البدن اعضاء تتفاوت في الفضل ، وافضلها القلب والدماغ . ثم لكل عضو وظيفة من اجلها اعطاناه الله وانا انرى انفسنا نحرص كل الحرص عَلَى سلامة كلٍّ منها كيما نستعمله في وظيفته حتى عَلَى الظفر من البنصر ، فهل من الحكمة والرويّة ان نعتني بكل الاعضاء حتى اصغرها قدراً ثم نعمد الى اكبرها فائدةً واوفرها شرفاً واعمها نفعاً فنطرحه في زاوية الاهمال فيما هو من اقدس مظاهر الحياة ، الا وهو الدين ؟ ذلك مَثَلُ قولنا « الدين وراء العقل ! »

ثامناً : هي « مانعة الجمع والخلوّ معاً » فاما عقل ، واما شيء ما ورائه ، لا ثالث لهما . وليس وراء العقل غير الجنون لانه قسيمه ، ثم ما اخال احداً ينكر علينا اذا قلنا : الرضاء بالجنون ضربٌ من الجنون . وهي لطيخة تلحق الذين يريدون ان يدينوا الله بما وراء العقل ، انها لاحقة بهم من حيث يشعرون او لا يشعرون

اذا وعيت كل ما املينا عليك فنقول : انه بمثل هذه الكليات من الشريعة المحمدية كان الدين يسراً لا تستطيع ان تشوه وجهه بوصمة العسر كف العصور وايدي الطبقات من ابنائها مهما تنائت تلك وتناكر هؤلاء . وبارتكازه على مثل هذه الاسس المتينة تسنى له ان يكون دين الفطرة ، ناسخاً غير منسوخ ، وجاز ان يكون صاحب بعثته « ص » خاتم الانبياء وان تكون شريعته خاتمة الشرائع

فان قيل : انك زعمت ان للانسان اربعة ادوار ثالثها دور الارشاد وخصصته بالانبياء ثم رتبت عليه الرابع وسميته دور الجزاء وزعمت انه لا يتم نظام الوجود دونه ، ثم قلت في آخر التمهيد الاول : ان مناط حفظ الشرائع والاديان وبقاء الانسان انساناً انما هو خلائف الله في ارضه ، وما خلفاؤه فيها غير انبيائه . والآن تقول : ان النبوآت قد ختمت بمحمد « ص » بمعنى انه لن يأتي بعده نبي . فاين بقي دور الارشاد ثم دور الجزاء اللذان نوّهت بشأن لزومهما من ادوار الانسان ؟ واين بقي خلائف الله في ارضه ؟ اولئك الذين جعلتهم مناط حفظ الشرائع والاديان وبقاء الانسان انساناً

قلنا : انك بعد ما عرفت ان كثرة الاختلاف في الشرائع

والاديان يخل بنظام الكون فاقتضت الحكمة ان تختم بشريعة كافية ودين واف يمشيان مع العقل ويسيران مع الحكمة جنباً لجنب ؛ ينطبقان عَلَى روح الفضيلة مهما تدرّج الانسان في معارج الارتقاء بين ثنايا العصور ومعاطف الدهور بمقتضى « قانون التكامل » وفهمت اجمالاً ان في الشريعة المحمدية الكفاءة والكفاية لذلك فنقول : ان الله تعالى لم يترك الامر هملاً بعد محمد « ص » بل جعل للامة ائمةً من بعده يرشدون برشده ويهتدون بهداه ، تجتمع بهم الكلمة وينضم الشمل ويعز الدين وينتظم بهم امر الملة وتقام بهم حدود الله ، اولئك هم ائمة المسلمين واولئك هم خلفاء النبي فيما استخلفه الله . ومن المقرر الثابت في المنطق ان مضاف المضاف الى الشيء مضاف الى ذلك الشيء ، فالخلافة الاسلامية اذن خلف النبوّة بل النبوّات التي شرعت ليخلف الله ذووها في تنفيذ احكامه . والى هذا يساق الحديث اولاً وآخراً وهو « المقصود »

المقصود

﴿ في ان الخلافة الاسلامية خلف النبوّة بل النبوّات ﴾

﴿ وانها واجبة قبل كل واجب ديني ﴾

عرفت في صدر الرسالة ان الفصل الاول منها معقود لبيان منشأ الخلافة الاسلامية · وما اخالك الا وقد اتضح لك ذلك بما ليس فوقه مزيد بما قدمناه من التمهيدات التي مرت بك تفاصيلها مرتباً بعضها على بعض اشبه بترتيب المقدمات من الشكل المنطقي عند ما يراد التوصل الى النتيجة بصورة يشربها الطبع ويأنس بها الفكر وترتاح اليها النفس ،

فعلمتَ : ان منشأ الخلافة الاسلامية مبدأ الخلقة اذ استخلف الله آدم في الارض ، ثم جعلها في ذرّيته من النبيين والمرسلين ، حتى افضت النوبة الى من ختم به الرسالات فجعل بعثته عامةً وجعل في شريعته الكفائة لذلك وهو سيدنا ومولانا « محمد بن عبد الله » صاحب الشريعة الاسلامية صلى الله عليه وسلم · فكانت الخلافة الاسلامية من بعده خلف النبوّة بل النبوّات من عهد آدم ابي البشر واول نبي استخلفه الله · وهذا وجه تسمية ائمة المسلمين بالخلفاء · ولذلك لم يدع بها قبلهم احد من

الذين سبقوهم من الامم غير انبياء الله. ولقد كانت اول اسم دعي به ائمة المسلمين نظراً لذلك الاصل، فكان الاصحاب بعد النبي «ص» يدعون الخليفة الاول بخليفة رسول الله. حتى اذا تولاها عمر «ض» كان اول من دعي بامير المؤمنين ايجازاً وتخفيفاً. مع اعتبار بقاء الاصل كما يفهم من قوله فيما يروى عنه: لو اطيق الاذان مع الخليفى لاذنت[1]

هذا، واذ ثبت لديك ان الخلافة الاسلامية خلف النبوّة بل النبوّات فندّعي الآن انها واجبة وانها قبل كل واجب ديني، ثم نثبت ذلك بما يفتح الله علينا من الآيات والبينات من كتابه العظيم وحديث نبيه الكريم واعمال الصحابة واقوال العلماء والسادة الفقهاء وغير ذلك مما ينهض حجةً من طريق النقل او العقل فنقول:

في وجوب الخلافة

اما انها واجبة: بمعنى ان عقدها لمن يقوم بها في الامة واجب فمما اتفقت عليه الكلمة. وانما الخلاف في سبب الوجوب، فقالت طائفة: انه العقل. وقالت الاخرى: انه الشرع فقط. والحق ان سبب الوجوب كلاهما: العقل والشرع

---

(١) بخاء مكسورة ولام مشددة والف مقصورة بمعنى الخلافة

فاما طريق العقل: فذلك ما اهتدى اليه احد شعراء الجاهلية حين لا شرع يستضيء بنوره من خلال تلك الظلمات ظلمات الوحشة والهمجية الا ما اوحت اليه القريحة الشعرية من سماء الفطرة بمقتضى العقل البشري فقال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فالحقيقة التي يهتدى اليها من لا دليل له الا الفطرة يجب ان لا يماري عاقل في انها مما يوجبه العقل بمجرد الالتفات اليها والتمعن فيها . ولذا قالوا : ان العقلاء في طبعهم التسليم الى زعيم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم في التنازع . والرئاسة طبيعية في البشر ، بل حتى في الحيوان اذا ما تآلف وكان متجانساً ، كما يشهد بذلك عين الشهود من المجتمع لمن اعاره طرف بصير ، وقد اشار الى مثله ابن خلدون

واما طريق الشرع : فقد ثبت فيه وجوب الخلافة باصوله الثلاثة : الكتاب والسنة والاجماع . فاما الكتاب فانه يقول : « اَطِيعُوا اللهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاُولِي الاَمْرِ مِنْكُمْ » . وبديهي ان الاطاعة فرع عن وجود المطاع ، والامر للوجوب ، فكيف يمتاز الفرع عَلَى الاصل ويكون واجباً دونه ؟ بل في البحث عن الفرع عَلَى سبيل الامر بوجوبه اشارة الى تأكيد تقرير الاصل ، كأنه

يقول : ان وجود اولي الامر امر معلوم لا محل للبحث عنه والتنبيه عليه ، وانما ننبهكم — معاشر المسلمين — الى ما عسى ان يكون مجهولاً لديكم وهو امر زائد عَلَى وجوب وجود اولي الامر ، الا وهو وجوب اطاعتهم . وما اولو الامر الا المتأمرون علينا منا وهم الخلفاء

واما السنة : ففي صحيح البخاري الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : من كره من اميره شيئاً فليصبر فانه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية . وفي رواية : من رأى من اميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فانه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية . ففي هذا الحديث الشريف اكبر صراحة عَلَى وجوب الامامة ووجوب الانضواء تحت لوائها حيث رتب عَلَى فقد المسلم ظلَّها اكبر محذور وهي الميتة الجاهلية ، لان المعنى ان من فارق الجماعة وخرج من السلطان مات وكأنه لم يدرك زمن النبوّة . واي محذور اكبر من هذا لمن كان يؤمن بمحمد وما جاء به محمد « ص » ؟ ثم لا دافع لهذا المحذور الا وجود الامام وعدم الخروج عنه قيد شبر . فانظر ايها المسلم ماذا عسى ان يكون حينئذٍ للامامة في دينك من مراتب الوجوب

وسيمرُّ بك من الاحاديث النبوية ما يثبت وجوب الطاعة لاولي الامر فنقول فيها ما قلنا في الآية الكريمة آنفاً من ان

الطاعة فرع عن وجود المطاع والبحث عن الفرع عَلَى سبيل الامر بوجوبه اشارة الى تأكيد تقرير الاصل . فتكون كل تلك الاحاديث الشريفة مثبتة كذلك لوجوب وجود اولي الامر ، وما هم الا الخلفاء

واما الاجماع : فقد اتفقت كلمة الامة واجمعت جماهيرها عَلَى وجوب الامامة في الملة الاسلامية منذ قبض الله نبيه اليه حتى ساعتنا هذه . وهذه صحائف التاريخ الاسلامي اذا ما تصفحناها فلا نكاد نرى الامة خلت — عَلَى تعاقب العصور واختلاف الاجيال — من خليفة عقدت له البيعة والقت اليه بالمقاليد . وهذا دليل للاجماع عَلَى وجوب الخلافة عملي اكبر عندي من الادلة القولية . ثم هذه كتب « الكلام » وغيرها مشحونة بنقل العلماء الاجماع على ذلك . ولم ارَ من وصموه بالشذوذ عن الجمع في هذه المسئلة الا ما نقله الماوردي عن الاصم : فكأنه لم يكن من القائلين بالوجوب . وعندي ان هذه المخالفة من الاصم ونقلها عنه فقط دون ان يؤثر عن غيره شيء من ذلك مما يزيد المسئلة تأكيداً وتثبيتاً ، وذلك : ان امراً يهم الوف الالوف في مشارق الارض ومغاربها بين طبات القرون وثنايا العصور اذا ما نقل اتفاق كلمتهم عليه ثم لم يؤثر خلاف فيهِ الا عن واحد بعينه فذلك دليل عَلَى ان

هناك استقراء قد عجز ان يأتي بثانٍ لذاك الواحد من بين هاتيك الجموع العظيمة. ومثل هذا يعدُّ غاية قصوى في التأكيد والتثبيت

تتمة

من الائمة الذين نقلوا اجماع الامة عَلَى ذلك حجة الاسلام الامام الغزالي رحمه الله ثم اتى ببيان موجز اشبه بالواسطة في العقد فرأينا من تمام الفائدة ان نلتقط بعض لآليه [1]

قال رضوان الله عليه عند الكلام عَلَى الامامة ووجوب نصب الامام : ان فُسِّر الواجب بالفعل الذي فيه فائدة وفي تركه ادنى مضرة [2] فلا ينكر وجوب نصب الامام عقلاً لما فيه من الفوائد ودفع المضار في الدنيا. ولكنا نقيم البرهان القطعي الشرعي عَلَى ذلك ولسنا نكتفي بما فيه من اجماع الامة ، بل ننبه عَلَى مستند الاجماع، فنقول : ان نظام امر الدين مقصود لصاحب الشرع عليه السلام قطعاً ، وهو — اي نظام امر الدين — لا يحصل الا بامام مطاع ، فيحصل من المقدمتين صحة الدعوى وهي وجوب نصب الامام

ثم قال رحمه الله : ان نظام الدين لا يحصل الا بنظام الدنيا ، ونظام الدنيا لا يحصل الا بامام مطاع، ينتج من هاتين المقدمتين

---

(١) ننقل عن رسالته « الاقتصاد في الاعتقاد » بتصرف

(٢) واياه عنينا اذ قلنا بالوجوب عقلاً وشرعاً في صدر البحث

ان نظام الدين لا يحصل الا بامام مطاع . ونظام الدين واجب فما لا يحصل الا به واجب مثله

ثم قال رضي الله عنه : وليس الدين والدنيا ضدين ، ولا الاشتغال باحدهما خراب للآخر ؛ فانه كلام من لا يفهم ما نريد بالدنيا فيغلط ولا يميز بين معاني الالفاظ المشتركة . ان نظام الدين بالمعرفة والعبادة ، ولا يتوصل اليهما الا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والاقوات ، ثم الامن هو آخر الآفات . والدنيا بهذا المعنى ليست ضد الدين ، بل هي شرط له . وليس يأمن الانسان عَلَى روحه وبدنه وماله ومسكنه وقوته في جميع الاحوال ولا في بعضها ولا ينتظم امر الدين الا بتحقيق الامن . والا فمن كان جميع اوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة فمتى يتفرغ للعلم والعمل وهما الوسيلة له الى سعادة الآخرة . فبان إذَنْ ان نظام الدنيا اعني مقادير الحاجة شرط لنظام الدين ، ونظام الدنيا بالامن عَلَى الانفس والاموال لا يتم الا بسلطان مطاع كما تشهد له مشاهدة اوقات الفتن بموت السلاطين والائمة وان ذلك لو لم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج وعمّ السيف وشمل القحط وهلكت المواشي وبطلت الصناعات وكان كل من غلب سلب ولم يتفرّغ

احد للعبادة والعلم ان بقي حياً والاكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف . وعلى الجملة فلا يتمارى العاقل في ان الخلق على اختلاف طبقاتهم وما هم عليه من تشتت الاهواء وتباين الآراء لو خلوا ورأيهم ولم يكن رأي مطاع يجمع شتاتهم لهلكوا عن آخرهم . وهذا داء لا علاج له الا بسلطان قاهر مطاع يجمع شتات الآراء

فبان ان السلطان ضروري في نظام الدنيا ، ونظام الدنيا ضروري في نظام الدين ، ونظام الدين ضروري للفوز بسعادة الآخرة ، والفوز بسعادة الآخرة هو مقصود الانبياء قطعاً ، فكان وجوب نصب الامام من ضروريات الشرع التي لا سبيل الى تركها فاعلم ذلك . انتهى كلام الامام

ايضاح

ان اصول الدين التي يستند اليها امر الشريعة الاسلامية اربعة : الكتاب والسنة والاجماع ثم القياس . والكتاب هو الاصل : فانما نأخذ بالسنة امتثالاً لقوله تعالى « مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ » . وانما نعتبر الاجماع تمسكاً بقوله « وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا »

وانما اوجدنا القياس استدلالاً — عَلَى ما قالوا — بقوله: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَاوُلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» . (وعندي ليس فيها دليل نظراً لسبب النزول فليراجع) ثم كل واحد من هذه الاربعة يكفي وحده لاثبات حكم شرعي عند فقد ما تقدمه من قسمائه عَلَى نحو ما مرّ ترتيبهنّ . اما وجوب الامامة فقد ثبت — كما عرفت — بالكتاب والسنة والاجماع ، فليت شعري اي عذرٍ لمن يتمارى في ذلك ؟ وهل له غير جهنم اذا ما تولى ولم يتبع سبيل المؤمنين ، يصلى نارها وسائت مصيراً ؟

واما انها قبل كل واجب ديني [1] — بمعنى ان النظر في امرها مقدم عَلَى كل نظر ديني — فلأن معظم المسائل في الدين الاسلامي من عبادات ومعاملات تتوقف صحته على وجود امام للمسلمين ، وما يتوقف عليه الشيء يجب ان يكون سابقاً لذلك الشيء مقدماً عليه ضرورةَ ان المعلول لا يتقدم علّتَه وانّ الاسباب تمشي امام مسبباتها ، فهاتان مقدمتان ينتج عنهما ان النظر في امر الخلافة الاسلامية مقدم عَلَى كل نظر ديني

اما المقدمة الثانية فلا يستطيع ان يماري فيهـا من له ادنى

---

(١) اما العقائد فهي مستثناة من هذا العموم وذلك بديهي كيف لا والوجوب تكليف والتكليف فرع عن الايمان ولا ايمان قبل العقيدة

مسكة من تعقل ، واما المقدمة الاولى فثابتة بما يؤخذ من كتبنا الدينية في الفقه والاصول والكلام مما لا يسعنا استيعاب تفاصيله في مثل هذا المقام ، ولكننا نذكر بالامهات من ذلك عَلَى سبيل الاجمال — والذكرى تنفع المؤمنين — فنقول :

ان بفقد الخلافة الاسلامية تبطل الولايات ، يبطل القضاء ، تبطل العقود المناطة بالقضاة

واذا بطلت الولايات تعطلت الاحكام واختلت الادارة وانفرط العقد من الهيئة الاجتماعية

واذا بطل القضاء تعطلت الحدود وماتت الحقوق واختلت الانكحة

واذا بطلت العقود غلّت الايدي وساء الكساد في التصرف وتعطل كثير من معايش العباد

بل نقول : بفقد الخلافة الاسلامية يتعطل الموسم ، فلا يحج بيت الله ، وتخفت اصوات المنابر ايام الجمعة وفي الاعياد ، فلا يُسعى الى ذكر الله ، و يغلق كثير من ابواب المساجد ، فلا يذكر فيها اسم الله .

ذلك بان كل هاتيك المسائل في دين الاسلام تتوقف صحتها عَلَى وجود خليفة في المسلمين كما تفهم تفاصيله من مواضعه في كتب الشريعة والدين . ومن اراد تمام الوقوف على ذلك فعليه بكتاب

« الاحكام السلطانية » للامام الماوردي رحمه الله

ان هذه العناية الكبرى وخوف الفتن وتفاقم الشرور وامثال ذلك من البواعث هي التي حدت بمثل الامام حجة الاسلام رضي الله عنه ان يرى التسامح في بعض شروط الخلافة ويأمر غيره بذلك حتى قال — بعد كلام اثبت فيه لزوم التسامح — فليهوّن المستبعد — لمخالفته المشهود — استبعاده وليتنزل من غلوائه فالامر اهون مما يظنه.

ثم قال رحمه الله: ليت شعري من لا يساعد على هذا — اي التسامح — ويقضي ببطلان الامامة عند فقد المتصف بشروطها فاي احواله احسن: ان يقول القضاة معزولون والولايات باطلة والانكحة غير منعقدة وجميع تصرفات الولاة في اقطار العالم — يريد العالم الاسلامي — غير نافذة وانما الخلق كلهم مقدمون على الحرام؟ او ان يقول الامامة منعقدة والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار؟ فهو بين ثلاثة امور: اما ان يمنع الناس من الانكحة والتصرفات المناطة بالقضاة وهو مستحيل ومؤدٍ الى تعطيل المعايش كلها ويفضي الى تشتيت الآراء ومهلك لجماهير الدهماء، او يقول: انهم يقدمون على الانكحة والتصرفات ولكنهم مقدمون على الحرام؛ الا انه لا يحكم بفسقهم ومعصيتهم لضرورة الحال، واما ان يقول: يحكم بانعقاد الامامة مع فوات شروطها لضرورة الحال. ومعلوم ان

البعيد مع الابعد قريب ، واهون الشرين خير بالاضافة الى الآخر ويجب عَلَى العاقل اختياره . فهذا تحقيق هذا الفصل وفيه غنية عند البصير عن التطويل ، ولكن من لم يفهم حقيقة الشيء وعلته وانما يثبت بطول الالفة في سمعه فانه لا تزال النفرة عن نقيضه في طبعه ، اذ فطام الضعفاء عن المألوف شديد عجز عنه الانبياء فكيف غيرهم . انتهى كلامه رحمه الله [1]

تنبيه

ان اوضح دليل عَلَى ان النظر في امر الخلافة مقدم عَلَى كل واجب ما كان من اصحاب رسول الله « ص » يوم السقيفة : فانهم رضوان الله عليهم ريثما توفى الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم لم يكن منهم الا ان اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة حتى اتمّوا الامر ، لم يشغلهم عنه شاغل حتى ولا جهاز رسول الله « ص » بل تركوا كل شيء واهملوا كل شيء الا ما كان من امر الاستخلاف — اي نصب الخليفة — فما تماهلوا فيه ساعةً من زمان

---

(١) يتكلم الامام رحمه الله عن الامامة ووجوبها في زمانه حيث لم يتسع نطاق السياسة ولا كان اعداء المسلمين اولي بأس شديد يتربصون بهم الدوائر من حين الى آخر كما في عصرنا هذا ؛ فكيف به لو شهد موقف المسلمين اليوم مع دول الغرب وفرط حاجتهم الى اتحاد الكلمة ولمّ الشعث والانضواء تحت لواء واحد، فماذا كان عسى ان يقول؟

تكملة

في وجوب اطاعة اولي الامر

اذا علمت ان نصب الامام واجب وان النظر فيه مقدم على كل واجب ديني فاعلم ان اطاعة ذاك الامام واجبة كذلك . وقد مرّ بك عرضاً ما اثبت لديك ذلك ، ولكننا الآن نريد ان نتكلم فيه قصداً ونزيدك ايضاحاً وتنويراً ، فنقول :

ان اطاعة الامام واجبة عقلاً وشرعاً . اما عقلاً فلأن الغاية من نصب الامام حفظ كيان الامة وتقويم اودها بتنفيذ الاحكام فيها حسبما تقتضيه المصلحة ويقضي بهِ شرع الله ، وهذا لا يتم الا بالسمع والطاعة ، فاذا فقدا فقدت الغاية ، ومباشرة العمل مع الرضاء بضياع الغاية منافٍ للعقل ، وما كان منافياً للعقل وجب نقيضه ، فثبت ان اطاعة الامام واجبة عقلاً

واما شرعاً فلأن الله تعالى امر باطاعة اولي الامر وقرن اطاعتهم باطاعة الله ورسوله ، ومعلوم ان اطاعة الله ورسوله واجبة فكذلك اطاعة اولي الامر واجبة . قال تعالى: « اَطِيعُوا اللهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاُولِي الْاَمْرِ مِنْكُمْ » . ومن المقرر في علم الاصول ان الامر للوجوب . هذا ما جاء في كتاب الله المجيد

واما سنة رسول الله فقد روي هشام بن عروة عن ابي صالح عن ابي هريرة ان رسول الله « ص » قال : سَيَلِيكُمْ بَعْدِي وُلاةٌ فَيَلِيكُمُ البَرُّ بِبِرِّهِ وَيَلِيكُمُ الفَاجِرُ بِفُجُورِهِ فَاسْمَعُوا لَهُمْ وَاَطِيعُوا فِي كُلِّ مَا وَافَقَ الْحَقَّ فَإِنْ اَحْسَنُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ وَإِنْ اَسَاؤُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ

فقد امر « ص » في هذا الحديث الشريف بالسمع والطاعة لولاة الامر ، والامر — كما عرفت — للوجوب ، ثم شدّد في ذلك حتى لم يفرق فيه بين البر منهم والفاجر ، وانما جعل احسان المحسن منهم للامة ولنفسه واساءة المسيئ للامة وعليها (اي على نفسه)

وفي صحيح البخاري عن انس بن مالك « ض » قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اِسْمَعُوا وَاَطِيعُوا وَاِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ

وفي هذا الحديث من فرط العناية بوجوب السمع والطاعة بما افادته « ان » الوصلية في قوله « وان استعمل عليكم عبد حبشي » ما هو جدير بالتدبر ، فكأنه يقول : انكم ملزمون بالسمع والطاعة لاولي الامر منكم من حيث انهم اولو الامر مع قطع النظر عن بقية

العوارض كالشخصية والجنسية ، حتى انكم ملزمون بذلك فيما عسى ان يغلب عليكم الظن بخلافه كما اذا استعمل عليكم عبد حبشي ، لان النفوس عادة تأنف من قبول الامرة والانقياد لحبشي وسم بالعبودية ، لاسيما بالاضافة الى الذين كانوا في زمن الخطاب لما كانوا عليه من فرط الاباء والشمم ثم التهاون والاحتقار لمن كان موصوفاً بتلك الاوصاف حسب العرف والعادة بينهم حتى انهم كانوا لا يلحقون بالنسب من اولاد صلبهم من قذفته رحم من العنصر الاسود ، ولمثل هذا اكد المعنى بقوله « كأن رأسه زبيبة » دفعاً لما يتوهم من ارادة المجاز تنصيصاً على المراد

وغاية الغايات في هذا الباب ما في صحيح البخاري عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه ، قال : دَعَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ فِيمَا اَخَذَ عَلَيْنَا اَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَاَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَاَنْ لَا نُنَازِعَ الْاَمْرَ اَهْلَهُ اِلَّا اَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ

فان للبيعة في هذا الحديث صورة عامة تقطع دابر كل فساد حيث شرط السمع والطاعة حتى في حالة الاثرة ، ثم حسم مادة النزاع بان لم يجعل سبيلاً الى منازعة الامر اهله الا بكفر بواح فيه برهان من الله

تنبيهان

(الاول)

في هـذا الحديث الشريف وفي آية اولي الامر امر عظيم يجب عَلَى كل مسلم يؤمن بالله وبكتابه العزيز ان يتنبه له مهما كان في سبات عميق فيفقه معناه ويتدبر مغزاه وانه بذلك لحقيق ، الا وهو : قيـد « اولي الامر » في الآية الكريمة بقوله « منكم » خطاباً للمسلمين ؛ وكذلك الاستثناء في الحديث الشريف بقوله « الا ان تروا كفراً بواحاً » فانه يفهم منهما امران جديران بالاعتبار ، احدهما : ان من يلي امر المسلمين لا يجوز شرعاً ان يكون غير مسلم . وثانيهما : ان غير المسلم لا تجب طاعته عَلَى المسلمين اذا ما ولي من امرهم شيئاً . فاعلم هذا وعض عليه بالنواجذ ايها المسلم حتى يمر بك ما لاجله يساق الحديث

(الثاني)

ان ما ثبت وجوبه من السمع والطاعة لائمة المسلمين يتناول عمومه من يولُّونه شيئاً من الامر تنفيذاً او تفويضاً ثم يوجبون له السمع والطاعة في ذلك لان الخرق في طاعة من يوجبونها لهم خرق في طاعتهم ، فينتقض الامر ، ومن القواعد المنطقية ان الموجبة الكلية تنتقض بالسالبة الجزئية

الفصل الثاني

في ان الخلافة الاسلامية قائمة بالدولة العثمانية

قام لديك الدليل القاطع والبرهان الساطع ان الخلافة الاسلامية خلف النبوّة بل النبوّات وانها واجبة في الشرع المحمدي قبل كل واجب ديني ، والآن نقول : انها قائمة بالدولة العثمانية وتثبت هذه الدعوى من طريقين : الشرع والسياسة . ولكن ذلك يتوقف عَلَى تمهيد وبيان يكونان بمثابة مقدمتين ينتج عنهما المطلوب ، فاما التمهيد ففي كيفية انعقاد الامامة شرعاً ، واما البيان ففي انعقادها لآل عثمان وتمثلها في الدولة العثمانية

التمهيد

تنعقد الامامة من وجهين احدهما باختيار اهل العقد والحل ، والثاني بعهد الامام من قبل . واختلف العلماء في عدد من تنعقد بهم ؛ فقال اكثر الفقهاء والمتكلمين من اهل البصرة : اقل من ان تنعقد بهم الامامة من اهل الحل والعقد خمسة ، استدلالاً بامرين . احدهما ان بيعة ابي بكر رضي الله عنه انعقدت بخمسة ، وهم عمر ابن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح واسيد بن حضير وبشر بن سعد وسالم مولى حذيفة رضي الله عنهم ، اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها . والثاني

ان عمر «ض» جعل الشورى في ستة ليعقد لهم برضى الخمسة ... ومستند هذا القول وجيه : اذ كان امراً واقعاً ولانه تمّ عمله ونكرّر من كبار الاصحاب وفي جمهورهم من غير نكران

وقال آخرون من علماء الكوفة : تنعقد بثلاثة يتولاّها احدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكماً وشاهدين كما يصح عقد النكاح بوليّ وشاهدين ... وهذا القول ليس له صورة تطابقه في الخارج ولم يستند الى امر واقع في الصدر الصالح ليقاس عليه ، والقياس فيه عَلَى عقد النكاح قياس مع الفارق

وقالت طائفة اخرى ، تنعقد بواحد لانه حكم وحكم الواحد نافذ وقد قال العباس لعلي رضوان الله عليهما ، امدد يدك ابايعك فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف فيك اثنان ... وفي مستند هذا القول خصوص ربما يمنع من القياس عليه بدليل قوله : فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عمه وعَلَى هذا الخصوص بنى قوله : فلا يختلف فيك اثنان

وقالت طائفة : لا تنعقد الا بجمهور اهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضاء به عاماً والتسليم لامامته اجماعاً ... قالوا : وهذا المذهب مدفوع ببيعة ابي بكر رضي الله عنه عَلَى الخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر ببيعته قدوم من غاب عنها

واما انعقادها بعهد الامام من قبل فقد قالوا : انه مما انعقد الاجماع عَلَى جوازه ووقع الاتفاق عَلَى صحته لامرين عمل المسلمون بهماولم يتناكروهما ، احدهما ان ابا بكر عهد بها الى عمر رضي الله عنهما فاثبت المسلمون امامته بعهده . والثاني ان عمر « ض» عهد بها الى اهل الشورى فقبلت الجماعة دخولهم فيها وهم اعيان العصر وخرج باقي الصحابة منها اعتقاداً بصحة العهد بها . وقال علي للعباس رضوان الله عليهما حين عاتبه عَلَى الدخول في الشورى ، قال : كان امراً عظيماً من امور المسلمين لم ارَ لنفسي الخروج منه ... فصار العهد بالخلافة اجماعاً في انعقادها

البيان

من قرأ من التاريخ ما حفظ بين دفتيه عن الخلافة الاسلامية واعمل الفكر وامعن النظر فيما تعاقب عليها من الاطوار والاقدار في جوف العصور الخالية رأى العجب العجاب والامر الذي تحار فيه اولو الالباب : رأى مضحكات ومبكيات ومبشرات ومنذرات وانواراً وظلمات ، رأى صدوراً نائت باعجازها واعجازاً زواها العجز عن صدورها فحدّث ثمة ما شئت عن معجزات ومعجزات ، لا سيما اذ ينتهي بك النظر الى ما صار اليه امر الخلافة في اواخر الدولة العباسية فلا ترى ثمة الا طيف خيال ولمعة آل ، شيخاً فانياً او

طفلاً عليلاً ورسماً بالياً او شبحاً ضئيلاً : سلطان في اغلال الاسر وحاكم لا ينفذ له امر ، خليفة في قاعة ولا سمع ولا طاعة الا يداً تقبّل واسماً يتلى عَلَى المنابر ويرتّل . وقد عرفت ان هذا منافٍ لحكمة الاستخلاف من غير خلاف

فاذن الله بالشباب بعد الهرم وبالصحة بعد السقم وكان ما كان من امر ساكن الجنان السلطان سليم خان فبعث اليه بمفاتيح الحرمين الشريف محمد ابو البركات وهو في مصر فكان اول من لقب بخادم الحرمين من آل عثمان ثم بايعه بالخلافة تخلياً عنها المتوكل عَلَى الله الثالث آخر الخلفاء العباسية في جامع «ايا صوفيا» عَلَى ملأ الاشهاد من رجال الملك وعامة المسلمين فكان اول خليفة من تلك الاسرة الطيبة وذلك عام ٩٢٢ ثم ما زالت في عقبه حتى الآن ولا تزال كذلك ان شاء الله الى آخر الدوران

اذا تمهد لديك ما مهدنا واستبان لك ما بيّنا فنقول : انهما مقدمتان تثبتان لديك مبدأ تمثّل الخلافة الاسلامية في هيكل السلطنة العثمانية من كلا الوجهين : اختيار اهل العقد والحل ، وعهد الامام من قبل

اما اليوم فهي منعقدة حتى بالجماهير من اهل البلدان مما لم يسبق له نظير في التاريخ الاسلامي فكان عَلَى اكمل وجه واتم مثال

لانعقادها من قِبَل نواب الامة الموفدين من الاطراف والاكناف بانتخاب العامة والخاصة من افرادها. وهي غاية في الكمال اول من اكتسى رداء بهائها جلالة الخليفة الاعظم السلطان الغازي محمد الخامس الملقب بالرشاد اسبغ الله عليه نعمه وآلائه وايده بروح منه وقهر بسيف جبروته اعدائه

ثم ازيدك تنويراً في هذا الشان وذلك ان الخلفاء من آل عثمان تتأكد بيعتهم في كل عام فان الذي نسميه بعيد الجلوس تذكاراً ليوم انعقادها، وكذلك ورود رسائل التبريك ووفود التهنئة من الشعوب الاسلامية في الاقطار السائرة، وتلاوة الخطب هنالك في الجمعة والاعياد باسم سلطان الدولة العثمانية، وانابة «امير الموسم» من قبل جلالته في الحج الشريف حيث يحشر المسلمون من مشارق الارض ومغاربها، كل ذلك بيعة له بالخلافة الاسلامية؛ فمن عمق النظر من هذه الوجهة رأى ان الخلافة الاسلامية متمثلة في السلطنة العثمانية باختيار المسلمين كافة في كل انحاء المعمور

فناهيك بخلافة تنعقد بالعهد اولاً، ثم باختيار اهل الحل والعقد ثانياً، ثم ببيعة الجماهير من منتخبي البلاد ثالثاً، ثم باختيار عامة المسلمين رابعاً، على حين ان الشرع يكتفي لنصب الامام ويفرض طاعته بواحد من هذه الاربعة، فكيف بها وهي مجتمعة؟ ولم يتسن

اجتماعها لخليفة عَلَى هذا النسق الاكمل كما تسنى لجلالة امام الوقت خليفتنا الاعظم الغازي محمد الخامس الملقب برشاد وفقه الله الى ما فيه خير الامة وهدانا في ظله الى سبيل الرشاد

تنبيه

معنى قول العلماء من الفقهاء والمتكلمين « ان الخلافة تنعقد بكذا وبكذا » انها متى تمّ عقدها عَلَى هذه الصورة وجبت طاعة من عقدت له، فمن رجع عدّ ناكثاً، ومن ابى كان خارجاً وجاز للخليفة قتالهم حتى يفيئوا لامر الله ، كما كان من امر عليّ عليه السلام في وقعة الجمل وحرب صفين : فانه قاتل الذين بايعوه ثم نازعوه وعدهم ناكثين وحارب الذين لم يبايعوه ولم يطيعوه وعدهم خارجين وكان معه معظم الصحابة رضوان الله عليهم في الاولى، وكلهم في الثانية، يؤيدون رأيه ويعززون سلطانه بمقارعة السيوف وخوض غمار الحتوف، وهم نجوم الاهتداء ومصابيح الاقتداء . وما كان انعقاد الخلافة لعلي كرم الله وجهه الا بصورة واحدة وهي مبايعة اهل الحل والعقد

بعد ما ثبت لديك من طريق الشرع ان الخلافة الاسلامية قائمة بالدولة العثمانية فالآن نثبت هذا من طريق السياسة

كذلك ، فنقول :

لا يجهل من له ادنى وقوف على « حقوق الدول » واحوال العصر ومجاري السياسة فيه ان الحكومات بعضهن امرى بعض في التطور واثبات الوجود ، لا سيما بالاضافة الى الدول المتعاهدة وهي التي تسمى بالدول العظمى واحداهن الدولة العثمانية : فالحكومة التي لا تصادق هذه الدول على استقلالها وانها في مصاف الحكومات لا يمكنها ان تعيش مستقلة تمثلها راية خاصة ينطق بلسانها سفير عام تخفق من فوق رأسه في العواصم فان شاء مثلت حربا وان شاء مثلت سلما . وكذلك الحكومة التي لا تعترف لها الدول بالحماية على قوم ما لا تستطيع ان تداخل في شؤنهم كيما تطالب لهم بحق او تستطلع لديهم حقيقة دفاعا عنهم او تعزيزا لشوكتهم ، جلبا لمغنم او دفعا لمغرم . ثم الحق ابن القوة ، والحقيقة بنت العلم

اما الدولة العثمانية فلها هذه المميزات من بين الحكومات الاسلامية : فانها داخلة في معاهدة الدول الاوربية . والقوم يعترفون لها بعلاقتها المقدسة الدينية مع الشعوب الاسلامية في سائر الاقطار . وكذلك الشعب العثماني اوسع الشعوب الاسلامية علما واكبرها وقوفا على روح العصر واشدها تضلعا في وجائبه ومقتضياته . ثم الدولة العثمانية اكثر عددا واوفر عددا واشد قوة

واوفى منعةً من غيرها من الحكومات الاسلامية (لو ان اعداء هذا الدين قد ابقوا لابنائه البائسين حكومات)

ولمثل هذه البواعث كان للدولة العثمانية حق التداخل في شؤن المسلمين الذين فصلتهم عنها الحدود الجغرافية ولكن قلوبهم مرسومة ضمن خريطتها الدينية بالرغم عن كل قوةٍ تتمثل في لعلعة المدافع وفرقعة القذائف وبريق السيوف

فالخلافة الاسلامية قائمة بالدولة العثمانية سياسياً ايضاً كما انها متمثلة فيها شرعاً

الفصل الثالث

في ان دولة الخلافة الاسلامية اذا زالت بزوال الدولة العثمانية فليس في الامكان قيام اخرى مكانها

الخلافة الاسلامية روح ديني في جثمان سياسي ، وما جثمانها الا الدولة العثمانية . ومما لا ريب فيه ان الجسد اذا توالت عليه الامراض وتمادت فيه العلل ولم يتدارك امره نطس حاذق وممرض مشفق تزلزلت اركانه وتضعضع بنيانه فلا يزال يضمحل ويتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اذا فقد قوته الطبيعية ولم يبقَ فيه من رمق تطايرت ذرات الروح من مراكز الحياة فيه . وهكذا يكون الموت اذ لا بد للروح من مسكن تأوي اليه . ثم ليس للروح من عوض ، وأنى لها الرجعى اذا ما تفسخت الاشلاء ، والاصطبار اشد من النار ليوم البعث والنشور

كذلك مثل الخلافة الاسلامية والدولة العثمانية : تزول تلك بزوال هذه لا قدر الله ثم ليس في الامكان قيام اخرى مكانها

اما زوال الخلافة بزوال هذه الدولة — اعاذنا الله معاشر المسلمين من ذلك — فلأنها قائمة بها كما عرفت وزوال الشيء بزوال مقوِّمه من الامور الطبيعية التي لا تحتاج الى اثبات وبيان .

واما انها اذا زالت فليس في الامكان قيام اخرى مكانها فذاك ما نريد اثباته الآن فنقول :

الخلافة صورة مقدسة ومثال بديع كما عرفت ؛ فلا بد من دولة قوية الشكيمة ، بعيدة الغور ، مترامية الاطراف ، متينة الاركان ، مهذبة الحواشي ، مستقلة بالارادة ، صالحة لان تكون مرآة التشخص لتلك الصورة المقدسة وذاك المثال البديع . وتأسيس دولة اسلامية بهذه الاوصاف في هذا العصر مع ما عليه من التطورات السياسية تكليف للطبيعة بما فوق الطبيعة مما يكاد يعد رابع المستحيلات وذلك لامرين : داخلي وخارجي .

اما الداخلي :— ونعني به الهيئة العامة من العالم الاسلامي — فلان الحصول على الشيء مشروط بالاستعداد له والقابلية لتلقيه . وهذا الشرط مفقود في المسلمين بالاضافة الى الغاية المطلوبة . واذا فقد الشرط فقد المشروط

اقول هذا بكل اسف ولو استطعت لكتبته بدموع من دم بدلاً من المداد

ان الاستقلال في الحياة هو الحياة وانه لامر عظيم . واعظم منه للامة التي تريده ان يكون لها النصيب الاوفى من اطوار العصر وما ينزع اليه في مناهج الحياة . والعصر الذي نحن فيه عصر

علم وفن ، فبخار و كهرباء ، فابتداع واختراع ، فاقتصاد واستعباد - هذه مناهج العصر الحاضر واطواره ، وما اراني ازيدك علماً اذا قلت : ان المسلمين من كل ذلك محرومون ، فأنى لهم ان يضرموا ناراً من غير شرر ؟ وأنى لهم ان يستنزلوا غيثاً من غير سحاب ؟

لو كان فيهم استعداد لمثل ذلك لظهرت في عالم الوجود آثاره: هذه الامة المسيحية لا يزيدهم عددها غير شيء يسير ولها من الدول والحكومات ما يجهد الجغرافي تعدادُه ، ثم في الوقت نفسه لا تكاد تجد شعباً اسلامياً حدثته نفسه ان يستيقظ من رقاده ليتمتع بمثل تلك الحقوق الطبيعية ويحصل على حياة مستقلة سلبه ردائها اعداء الانسانية واعداء دينه المبين

الايجاد صعب والتجديد اهون منه . وقد كان للمسلمين حكومات متعددة شاركت العدو في الجناية على نفسها حتى طواها الزمان ودخلت في خبر كان ، فأرني منهن حكومة واحدة انقضت دعائم ملكها ثم تمكنت من حفظ الانقاض وتجديد البناء . ام من المعقول ان تستسهل البدء لديك بينما تعترف بتعذر الاعادة عليك ؟

ان من عجز عن حفظ ما في يده فهو عن ايجاد ما في طي الغيب اعجز ، فان عجز المسلمون — فرضاً لا قدر الله — عن حفظ

خلافتهم وهي راسخة الاركان شامخة البنيان، فهل من الروية ان يطمعوا في تأسيس اخرى مكانها لم يعرف لها اسم في خريطة الوجود ؟

المسببات منوطة باسبابها ، فاذا عجز المسلم عن حفظ كيان الخلافة ولديه اسباب الذب عن حوضها والدفاع عن حوزتها فكيف تراه يستطيع ايجاد كيان لها وليس لديه ما يعوز ذلك من الاسباب؟ أيجبن عن صون ما قد تأسس وتشيّد منذ نيف وستة قرون ثم يستبسل للبناء عَلَى انياب الافاعي تنهشه و بين ايدي الذئاب تقضمه قضماً ؟

تلك اباطيل الذين يخدعون الناس وتلك تضاليل الذين يجهلون انفسهم انهم هم المخدوعون

واما الخارجي

فانك تعلم ان مجاري السياسة في زماننا هذا غيرها فيما غبر من الازمنة الخالية: يوم كان الرجل يرى في نفسه ميزة عَلَى قوم توهله للامرة فيهم والرئاسة عليهم لشدة ساعد ووفرة مساعد او سخاء كف وكثرة مال ، فاذا به قد استصرخ بنيه وعشيرته وذويه ومنّى نفسه عظمة الملك وجبروت السلطان واذا بالقوم قد اجابوا الدعوة ولبوا الصيحة فتكوّن عرش وثبت نقش وشمخ انف واستضاء تاج

اما اليوم : فالامة ذات الحول والطول والعَدد والعُدد والثراء والكبرياء لا يجديها نفعاً دوي المدافع وصلصلة الحديد ولا الاصفر الرنان والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والجواهر والياقيت الرسوخ قدمها في مصاف الدول ومعاهد السياسة ولتمتع ابنائها اذا ضربوا في الارض بما لهم من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما لم يمتزج بهاتيك الاصوات من جبروتها صرير الاقلام عَلَى الطروس ونقر الرمال عَلَى السطور للمصادقة علَى ذلك من الدول المرتبطة بالعهود والمقيدة بالقيود تحت نظام خاص وعَلى نهج محدود كما سبقت لنا الاشارة اليه

الا ومن كان هو العامل علَى موتك فمن المستحيل ان ينقض ما ابرمته يداه فيعضدك في التماس الحياة . الا وان غاية السذاجة والغرور ان تعمد الى يدٍ قتلتك عمداً وقبرتك قصداً فتلتمس لديها النشور !

كذلك مثل المسلمين ومَثَل الدول الاوروبية: انه من المستحيل ان تأخذ بيدهم لاحياء حق هي امانته واماتة باطل هي احيته ، لاسيما وهي تعتقد ان حياتها بموتهم وقوتها بضعفهم وسعدها بشقائهم وعزها بذلهم وثرائها بفقرهم كأنها واياهم كفتا ميزان اذا ارتفعت واحدة انخفضت الاخرى، فاصرخ يومئذ ان شئت:

« اذا كان خصمي حاكمي كيف اصنع؟ »

ولكن هيهات ! انها صيحة العاجز وانة الموجع وصرخة المفجوع ومحنة الحيران ودهشة المبهوت ورعدة الخائف ورجفة المأخوذ وذلة الاسير واستغاثة المقهور ثم ميتة الآيس البائس على مضاجع الخمول :

صيحات وويلات تتجاوب اصداؤها في الفضاء وما هناك من مجيب ، اللهم الا صوتاً واحداً حفظه صدر الماضي منذ قرون واليوم يكرره تارة اخرى ، فاسمعه بكل اسف يقول :

« ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال »

اللهم انا نعوذ بك من ذاك اليوم العصيب : يوم تصبح امة محمد كقوم موسى قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب منك ، نهبى المطامع وضحايا الاهواء ، تسترقهم كل يد وتجهز عليهم كل مدية ثم يلوكهم كل شدق وينهشهم كل ناب

اللهم انا نعوذ بك من تكرار المصاب بالجمع منه ، فنذوق في الشرق ما ذاق الاندلس في الغرب ، ثم هناك الضربة القاضية والموت الذي ما بعده نشور

اللهم انا نعوذ بك ان نكون ممن لا تنفعهم العظات ولا تردعهم الزواجر فنجلس تحت قول الشاعر :

« من لم تزده عظة ايامه كان العمى اولى به من الهدى »

اللهم لا تشمت بنا اعدائك واعداء دينك ولا تجعلنا من الذين اماتتهم الغفلة من حيث احياهم الهوى وصحوا للخطوب من حيث اسكرهم الغرور ثم ايقظتهم النوائب من حيث استناموا للحوادث واستسلموا للايام فظلموا انفسهم وكان امرهم فرُطا

تلخيص

اذا كانت العقبى من انقراض الدولة العثمانية — لا قدر الله — محو الخلافة الاسلامية وقد عرفت ايها المسلم ما للخلافة من المكانة الكبرى في دينك والمنزلة العظمى في شريعتك والوجوب الاتم لصالح دنياك وآخرتك فبماذا يقضي عليك الواجب ؟

اذا كانت العقبى من زوال الدولة العثمانية — لا قدر الله — ايها المسلم شتات المسلمين وضيعة الدين والاستكانة لاعدائه والتسليم لخصمائه والقهر والاسر وافتضاح الامر والارهاق والاستبداد والافساد والاستعباد بفقد عز الجامعة وانتثار عقد الكلمة وتمزيق اديم الوحدة فماذا ترى من واجبك هنالك ؟

اذا كانت العقبى من زوال الدولة العثمانية — لا قدر الله — ايها المسلم ذلاً ما بعده عز وموتاً لا تعقبه حياة وفساداً لا يرى له اصلاح ورعباً لا يزيله امن وشقاء لا يشفعه نعيم ثم يأساً لا يتخلل ظلامه بريق امل فماذا عسى ان يكون عملك في مثل هذا الموقف العصيب ؟

اسئلة اطرحها على بساط البحث ثم اناشدك الله وشرف الاخاء الديني — ايها المسلم — الا ما فكرتَ في مغامزها فذكرت مبدئك ومنتهاك وتدبرت مصيرك وعقباك ثم غضبت لدينك ودنياك

ولكأني بك ان شاء الله وقد سطع لديك نور الفجر واتضح لك الامر واخذتك هزة العصفور بلله القطر فاذا انت عالم بالواجب وعامل له في آنٍ واحد

سلام الله عليك ايها العالم الاسلامي سلام جزء منك مفتون بكله وولدٍ من ابنائك بارٍّ ان شاء الله بابيه ؛ سلام محب لك، مشغوف بك، مفادٍ في سبيلك، يضحّي تحت اقدامك ما عسى ان يبخل به الاجواد حتى سواد العين وسويداء الفؤاد؛ بل يقرّب نفسه على هاتيك الاعتاب ثم يستعذب هناك كل عذاب؛ تحية نشوان بحمياك، ولهان بطلعة محياك، مخلص لك، مشفق عليك، واقف على قدم المفاداة بين يديك وربما فوّق سهام العتب اليك :

رحماك ايها العالم الاسلامي لقد فضح نور الصبح فحمة الدجى وبهرت شمس اليقين سرج الظنون ، ثم انت في ليل من الشك مظلم ! فحتى متى .. والى متى؟

رحماك ثم رحماك! لقد طلع الصبح فالى متى الرقاد؟ ولقد عرفت الداء فمتى تلتمس الدواء؟

لا اشك ان عروقك ممتلئة غيرةً وحماسة ، ولكن اين آثارها؟ لا اشك ان ملء اهابك حمية تتقد في كل ذرة من مقوّمات وجودك ، ولكن لماذا لا تشعُّ انوارها ؟ اني واثق ان طفاح قلبك زفرات متوقدة وانفاس متصاعدة ، ولكن متى يتطاير شررها وتستبين نارها؟ هذا تاريخك بين يديك وانه لتاريخ مجيد فاعطف اليه النظر رويداً :

الله اكبر ! ما هـذا المجد المؤثل والشرف الاعظم والسودد الاوحد والفخر المجسّد !

الله اكبر ! مـا هذه الاحساسات العالية والعواطف السامية والمدارك الراقية والنفوس الطاهرة والوجوه الناضرة !

الله اكبر ! ما هذه المحامد والمحاسن والمآثر والمفاخر والفضائل والفواضل والمكارم والمعالم !

الله اكبر ! ما هذه الشمائل الكريمة والاخلاق الوسيمة والعظائم من الامور والغرر الوضيئة في جبهة العصور ! ثم ما هذه الآيات البينات والمعجزات الباهرات !

تلك ديباجة تاريخ اسلافك — ايها المسلم — اذ تأخذه بيمينك وتقرؤه ونور الفخر يسطع من جبينك ..... فخذ بشمالك تاريخ يومك واقرأ سطور التفريط منك والاعتداء عليك والايقاع بك

ونصب الحبائل لك وتفويق السهام اليك ، ثم قس حاضراً بغابر واشهد عَلَى نفسك انك ابن الثريا وربيب الثرى فنصف في الارض ونصف في السماء

انهض بنفسك فانك اجلُّ من ان تكون في مثل هذا الواد . رفرِفْ في عالم الملكوت فانما مقرُّك هناك . أمبصر انت هذه الكواكب في صحن السماء ؟ ما اَشبهنَّ بتذكارات المجد من مآثر اسلافك الاكرمين . امعن النظر في قرص الشمس تجد سطوراً ذهبية خُطَّتْ عَلَى صحيفة من نور وما هي الا صفحة من تاريخ اولئك الكرام . ينظرون اليك من علٍ وتنظر اليهم من اسفل ، لشتّان ما بين هاتيك النظرات . . !

قد علمنا تقلب وجهك في السماء فلنولينّك قبلة ترضاها : اين انت من « الهلال » ؟ اما ان هناك نور هداك ، ثمة طالع سعدك ونجم رشدك ثم تذكرة مجدك ومجد آبائك الاكرمين . . . . أترى اشعتَهُ الذهبية ؟ انها الاسباب الى السماء فدونك السلَّم الاوحد اذا كنت تريد الارتقاء . استمسك بالعروة الوثقى فما هناك من انفصام .

اذا ما جنَّ عليك الليل وادلهمَّتْ غياهبه ثم غمرك بحالكة الستور فهل تجد غير البدر تمزق به احشاء الظلام ؟ استضىء بنور الهلال تجده بدراً كاملاً .

انك — ايها العالم الاسلامي — في ليل اليل وظلام حالك من ظلم اعداء دينك . والغاية القصوى للهلال ان ينتشلك من مخالب الظُلْم والظُلَم ، فترحمَ عَلَى نفسك بقدر ترحمِه عليك وتحنَّنْ عليها بقدر حنانه لك

هذا «الهلال» ما تداعت عليه الامم وتألبت عليه الاقوام الا من اجلك : يريدون ان لا يكون لك ولي ولا نصير لتظلَّ لقمة سائغة، يهنئون بعنائك و يسعدون بشقائك

قلِّبْ الطرف في هذا المجتمع وما انطوت عليه صحيفة الوجود من جميع الملل والنِحَل فلا ترى الا ظالماً ومظلوماً . اما الظالم فاعداء دينك واما المظلوم فانت .

هذه الامم كلها، هل ترى بينهنَّ مثلك من مظلوم ؟

ربع البشر عدداً ثم اشقاهم عيشاً وانكدهم طالعاً . ما أشبهَكَ بالفلاَّح: يظلمه الناس ومنه نعيمهم، يحقرونه وعَلَى أكتافه تقوم صروح الآمال

غفا جفنك فطمع فيك الاعداء ، ثم طال سباتك فانقلب الطمع وقاحةً حتى اذا افرطت في حمل الضيم وقبول الهوان اصبح القوم لا يحسبون لك حساباً كأنك في الوجود لا شيء . ولما لم يؤثر عليك كل هذا اضحوا يرونك شيئاً زائداً في الوجود . وما حق

الزائد الا المحو والافناء . الا وان القوم على هذا عاملون ، وفي هذا الوادي هائمون . الا وان في مقدمة القوم الا نكليز السكسونيين كما سنوافيك من ذلك بالنبأ اليقين ولا ينبئك مثل خبير

الخاتمة

في ان الانكليز اشد الامم عداوة للاسلام والمسلمين

لابن آدم صفحتان : حيوانية وانسانية فكلما قويت احداهما ضعفت الاخرى . وعلى كل فلا يخرج الانسان عن كونه حيواناً . ثم الواح الفطرة احد اثنين: المادة والمعنى . وان شئت فسم الاول جثمانياً والثاني روحانياً ، ولابن آدم من كليهما نصيب ، فاشتغاله بالماديات يقوى منه جانب الحيوانية . واشتغاله بالروحانيات يقوى جانب الانسانية . فاذا رقى في الثانية فربما تدرج حتى التحق بالملكوت واذا تسفل في الاولى كان شر صنوف الحيوان حتى الوحوش الضارية

المادة للجسم وهو من تراب فلا يصوب نظره الا في اسفل . والروح لمعة من لمعات الحق فلا تصعد النظر الا في السماء ومن هنا كان الناس احد اثنين: طيب وخبيث، رفيع ووضيع

يقال: من اكثر من شيء عرف به . فما كان احرى عصرنا هذا ان يعرف بعصر المادة .

شر صنوف الشر الأثرة ، وهي من خصائص المادة ومن سنن العصر حتى لو اعطيناه لقباً آخر لقلنا: عصر المنفعة

عدّ ما شئت من فعال الخير ومظاهره وموارد الحمد ومصادره واوامر القدس وزواجره وملامح السماء واخبارها وطيب الاحدوثة وفخارها وسلامة الصدر وآثارها وطهارة النفس وضمائرها والوجدانات وسرائرها حتى لا تدعَ للفضيلة آبدة الا ذكرتها ولا شاردةً الا احضرتها، ثم احشرهن في صعيد واحد من ربوع «لندن» او احياء «باريز» ثم قلّب هناك طرف الناقد البصير والمدرب الخبير تجد من فوق كلهن هيكلاً معلقاً في الفضاء شاخصةً اليه الابصار، والهةً فيه العقول، مشغوفةً به القلوب ، وقد ادلى بقدميه من علِ والقوم يقرّبون تحتهما كل هاتيك الفضائل ضحايا المطامع وقرابين الاهواء .

فاذا ما سألت عن ذاك الهيكل قيل لك : المنفعة !

الجود فضيلة وعند القوم جنون، فلو زار اخ اخاه ابى قراه لانه يضر بمنفعته مادةً . العفو عند المقدرة من اجلى مظاهر الانسانية، اما القوم فيسترقّون الرقاب و يمتصون الدماء و يوقعون بالامم وقعة المنتقم الجبار والناقم ذي الثار عَلَى غير ذنب مقترف ولا اثم مكتسب وانما هي المنفعة والقوم عبيدها

اشرف مايحمي الرجل عرضه، وخير ما يفادي في سبيله دينه، ولكن كليهما يذال هيكل صونه عندالقوم امام المنفعة لانهما معنويان وهي مادية

العفاف رداء من نسائم الاسحار تنعش به الارواح من حيث لا تراه العيون، والدين حلة من نور نزلت من السماء تلبس ولا تلمس، ولكن القوم يبيعون كليهما بدرهم يحسّونه بالبصر ودينار يلمسونه بالكف لانهم لا يريدون ان يعرفوا الا المادة

في القلب رحمة وحنان وبين الجوانح غيرة ومروءة يبعثهن امر روحاني هناك ربما نسميه باللطيفة الربانية، اما القوم فلا يشعرون بكل ذلك اذا اعترضت المنفعة لانهم ينكرون الروح ولا يريدون ان يعرفوا الا المادة

شتان ما بيننا معاشر المسلمين و بين اولئك المارقين : تهمنا الروح قبل الجسم ويهمهم الجسم قبل الروح ، فهم اعداؤنا طبعاً واعداء الانسانية . ان الانسان والحيوان مشتركان في الجثمانية وانما يمتاز الاول عن الثاني بالروح الانساني

لا تهمل النفس واستكمل فضائلها

فانت بالروح لا بالجسم انسان

ويرحم الله الفارابي اذ يقول:

كمّل حقيقتك التي لم تكمل والجسم دعه في الحضيض الاسفل
اتكمل الباقي وتترك فانياً همـلاً وانت بامره لم تحفل
أعطيتَ جسمك خادماً فخدمته اتملّك المفضول رق الافضل
شرك كثيف انت في حبلاته ان كان يمكنك الخلاص فعجّلِ

ولراقم الحروف من قصيدة في ابن آدم :

نور عليه ظلمـة تغشاه كل العقول تولّهت بسنـاه
ضدان قد جمعا بفرد وهو في سرّ اجتماعهما يحار نهاه
جسم وروح لاصطحابهما مدى شقي ابن آدم منهما بقضاه
هـذا يجرّ الى الثريا بُرْدَه والى الثرى هذا يجرّ كساه
يتنازعان عليه ثوبيْ شقوة وسعادة اذنا بطول عناه
لا تخدمنّ الجسم في شهواته فالروح تشقى باتباع هواه

اما القوم فخدام الجسم الحيواني ، اسراء المادة وعبيد المنفعة ، من اجل ذلك كانوا علينا اشد ضرراً من الحيوانات الكاسرة والوحوش الضارية ومن هناك كانوا اعداءنا واعداء الانسانية في آن واحد ..... ثم اشدهم عداوة لنا معاشر المسلمين ولديننا المبين هم الانكليز :

ان هولاء الطغام لا يوجهون سهام غدرهم الا نحو القلب يريدون الضربة القاضية

غرّهم من العالم الاسلامي فرط غفلته وطول سباته ووثقوا من انفسهم بما فطروا عليه من المكر والغدر والخداع والمخاتلة فجاءوا هذا المسكين بانياب الذئب وجلد الحمل حتى اذا تمّ دستهم واماتوا عواطف وخدروا اعصاباً كشروا عن ناب امضي من الحسام وانشبوا مخالبَ اشدّ وخزاً من الحراب ، قعدوا من المسلمين مقعد ذوات الانياب من الفريسة واخذوا ينهشون نهشاً ويقضمون قضماً ، يزدردونها لقماً سائغةً وغنائمَ باردةً حتى اكلوا من ذاك الجسد العظيم ما يربو عَلَى ثلثه

مزّقوا اديمه ، فصدوا عروقه ، امتصوا دمائه ، حزّوا مفاصله ، قطعوا اوصاله ، حتى اذا لم يبق الا القلب — وفيه مادة الحياة — استعظموا الامر ثم استكلبوا واعتقدوا انهم لم يصنعوا شيئاً ما دام القلب سالماً .... هناك جعلوا اقصى آمالهم وجلّ امانيهم محو الخلافة الاسلامية لانها قلب العالم الاسلامي . واخذوا يسعون السعي الحثيث من وراء تلك الغاية المشؤمة يضمرون الغدر وينصبون حبائل المكر ويتفننون في اساليب الخداع بمراوغة الثعلب ومخاتلة السلوقي وحقيقة الافعوان : لين مسّ وسمّ ناب

كل ذلك سهام يفوّقونها نحو القلب — قلب العالم الاسلامي — يريدون الضربة القاضية .

ان هذا من الامور الطبيعية للانكليز لان منفعتهم بل حياتهم هناك :

ما كان عرش بريطانيا لتكلله الحشمة وتظلله العظمة لولا ان دعائمه هم المسلمون ، فمن صالح بريطانيا ان لا يكون على وجه البسيطة دولة اسلامية ذات حول وطول تستطيع ان تكون سنداً للذين يحملون عرشها ويتخبطون في اغلال اسرها من اولئك البائسين . ولا ريب ان مناط تعزيز الدولة وكونها قوية الشكيمة، ذات حول وطول انما هو اتحاد الكلمة وجمع الشتات ، والخلافة هي كعبة السياسة للمسلمين ، تتوجه شطرها وجوههم اينما كانوا وتهوي اليها افئدتهم من كل مكان . وهي الرابطة الكبرى للشعوب الاسلامية والوسيلة العظمى للم الشعث وجمع الشمل ، فهي اجدر ان تكون تلك الدولة التي تستطيع ان تكون سنداً للبؤساء الذين يئنون تحت اثقال الحكم البريطاني من اخواننا المسلمين

من اجل ذلك كان الانكليز اكثر الامم ضرراً للمسلمين واشد الاقوام عداوة لهم ولخلافتهم المقدسة ولدينهم المبين ثم لهلالهم الممثل لعظمة هاتيك المقدسات

من اراد ان يعرف الجرائم المركبة والآثام المتداخلة والجنايات المتسلسلة المرتب بعضها على بعض ترتيباً لا يستطيعه الا من تسفل

من بني الانسان في الحيوانية الى اقصى درجاتها فليعمق النظر في اعمال بريطانيا ازاء العالم الاسلامي وفيمن اوقعه نكد الطالع في اشراك خداعها واغلال اسرها من اخواننا المسلمين . واليك بعض البيان عن الامهات من تلك الجرائم والجنايات :

﴿ الجناية الاولى ﴾ سوء نيتها وخبث طويتها ازاء العالم الاسلامي انتهازاً للفرصة من غفلته . ولا يشتبه ذو لب ان سوء القصد من الجنايات الادبية ومن طبايع الحيوانات الوحشية

﴿ الجنايه الثانية ﴾ تظاهرها بالخير للمسلمين بينما تضمر لهم شراً وهكذا دأبها معهم : تظهر غير ما تضمر وتضمر غير ما تظهر : غش محض ونفاق بحت مما يجدران يسمى رأس الجنايات . ولهذا اختار الشاعر الحكيم المجاهرة بالعداوة على الاخاء الكاذب حيث قال :

فاما ان تكون اخي بصدق فاعرف منك غثي من سميني
والا فاطّرحني واتخذني عدواً اتقيك وتتقيني

﴿ الجناية الثالثة ﴾ قلبها للحقائق عند ما تتمكن من العبث بعقول البسطاء : فتراها تقتل الحقيقة باسم الحقيقة وتجهز على العدل باسم العدل ، لا يزعها وازع ديني ولا يردعها رادع وجداني كما هو دأبها مع المسلمين من قديم وحديث

﴿ الجناية الرابعة ﴾ انها هي التي بددت شمل المسلمين فجعلتهم اشتاتاً : كانت لهم حكومات صغيرة وامارات غير يسيرة فالقت جراثيم الشقاق بين اقوام وخدّرت اعصاب آخرين وسحرت كل قبيل بما قصرت مداركه عن سوء عقباه حتى كانت النتيجة ان تناكروا وتنافروا وربما تناحروا وتشاجروا ثم تفرقوا ايدي سبا فهان عليها ان تزدرد قوماً بعد آخرين

﴿ الجناية الخامسة ﴾ انها ريثما تستحكم حلقات اسرها في طائفة من المسلمين وتأمن مغبّة ظلمها وسوء عاقبة غدرها لا تلبث ان تقلب لهم ظهر المجن فتخون العهود وتمزق الوعود لا تخشى الله ولا سواه ثم لا ترعى إلاًّ ولا ذمة كما كانت سلسلة اعمالها مع مساكين الهند وبؤساء مصر وغيرهما من الاقطار الاسلامية

﴿ الجناية السادسة ﴾ سلبها الحقوق السياسية ممن في قبضة اسرها من المسلمين : ان في ربوع الهند تسعين مليون مسلم تحكمهم بقوانين يجهلون واضعيها فضلاً عن ان يكون لهم فيها رأي حينما تبادل الافكار في وضعها الواضعون . واي ظلم فوق ان تُسطّر اقدارهم بايدي آخرين ؟

﴿ الجناية السابعة ﴾ سلبها حقوقهم الاقتصادية : فاذا ما عرّجت عَلَى مصر وتغلغلتَ في احشاء الهند رأيت المسلم آلة

مسخرة في عالم الاقتصاد كالجمل يحمل قربة الماء يرزح تحتها وليس له منها نصيب الا جرعة يُسقاها لتكون له عوناً على حمل الاثقال .... ثم لا تكاد تشم للنقود رائحة الوجود ، وانما هناك اوراق بايدي القوم متى غضبت بريطانيا وارادت بهم نكالاً استأثرت بما في المصارف (بنوق) من الذهب والفضة وتركت لهم تلك الاوراق اشبه بالتميمة في جيد الصبي لا تدفع عنه موتاً ولا ترد اذى

﴿ الجناية الثامنة ﴾ سلبها حقوقهم الاجتماعية : فانك لا تكاد تجد هناك منتديات ومجتمعات يتعارف فيها القوم فيفضي بعضهم الى بعض بما عسى ان يخالج ضميره مما يعجز عنه الفرد ولو تولاه جمع لعاد على كل فرد منهم بفائدة ما ادبية او اجتماعية او اقتصادية او عمرانية مثلاً . ولكن بريطانيا قد تركت المجال لمثل هذا اضيق من مفحص قطاة خشية ان تحتك الافكار بعضها فتلمع من خلال سحابها بارقة الحقيقة فيبصرها القوم وتنتبه المدارك ثم تثور المشاعر وهناك ينكشف الستار و يفتضح امر بريطانيا ومر سياستها الخلابة فربما تقع في مشاكل لا تحل الا بخسران عظيم

﴿ الجناية التاسعة ﴾ سلبها حقوقهم الادبية : فانك ترى الجهل ضارباً اطنابه حيثما خفق العلم البريطاني من الاقطار

الاسلامية والعلم رأس الحقوق الانسانية اذ به يمتاز الانسان عم يشاركه في الجنس من الحيوان ، ولكن بريطانيا تنقاضى من اولئك البائسين عطية «المعارف» ثم تنفقها في سبيل تعليم ابنائها مما يمهد لهم طرق الاستبداد في اولئك المساكين والتسيطر عليهم والاستعباد لهم والضرب عَلَى ايديهم كمن يأخذ من رجل سلاحاً بامان ثم يستعمله في سبيل اتلافه والقضاء عَلَى حياته . وهذه اقصى درجات الغدر وغاية الخسة والنذالة . اروني ايها القوم مدارس لكم عالية وكتاتيب راقية وكليات ضخمة شادتها لكم دولة بريطانيا تثقيفاً لعقولكم وتنويراً لاذهانكم وتأديباً لنفوسكم وتهذيباً لحواشيكم عَلَى حين ان ذلك حق ادبي اصبح في هذا العصر من الحقوق الطبيعية للانسان . ما ارى عليكم شيئاً من آثار ذلك ، ولو كان لما اقتم عَلَى الضيم واغضيتم عَلَى القذى واستكنتم للحوادث وسكتُّم عن البقية من حقوقكم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لان التمتع بالحقوق الادبية للانسان قطب رحى التوصل الى بقية حقوقه في مضمار الحياة . وهذا الامر نفسه كان الباعث لدولة بريطانيا عَلَى حرمان القوم من حقوقهم الادبية ليسهل عليها هضم البقية الباقية . وهكذا كانت الآثام متداخلة والجرائم مركبة

﴿ الجناية العاشرة ﴾ انها بدلاً من التودد الى العالم الاسلامي

رعاية لعواطف من عندها من اخوانهم المسلمين تراها العدو الازرق والبلاء الاسود لكل من آمن بمحمد «ص» وعظّم القرآن تبكيتاً لاولئك المخدوعين وتنكيلاً تقليماً لاظفارهم وتخضيداً لشوكتهم ثم تحكيماً لحلقات الاسر وشد الوثاق. ومن هنا كان كل فتنة حدثت في قطر اسلامي او كارثة نزلت فيه او حادثة هزت جوانبه فانما موقد نارها ومثير غبارها هم اولئك الانكليز ابناء السكسون الذين لا يريدون ان يصفو للمسلمين عيش ولا يهدأ لهم بال. واذا اردت تحقيق ذلك فخذ بيمينك خريطة الكرة و تاريخ السياسة بشمالك ثم ارسل النظر الى اقليم الهند العظيم و بلاد فارس ذات المجد القديم والى مسقط وعمان وقبائل نجد والعراق والى اليمن واطرافها والسودان واكنافها ومصر واعرافها حتى اذا تحققت ما انتاب هذه الاقطار الاسلامية من فاجع الاقدار على يد الدولة البريطانية علمت حق اليقين انها — لا بارك الله فيها — رأس كل بلاء للاسلام والمسلمين

﴿ الجناية الحادية عشرة ﴾ مناوأتها العداء للخلافة المقدسة الاسلامية عدواة للعالم الاسلامي كما مرّ بيانه. وتفصيل ذلك: انها تعلم ان ميزان الموت والحياة للمسلمين خلافتهم العظمى فاذا ماتت ماتوا من حيث لا يرجى لهم بعث وما دامت حيّة فلا يخشى عليهم من

الموت السرمد الذي ما زالت تتمناه لهم بريطانيا وتسعى من ورائه السعي الحثيث ، فبعثتها هذه الفكرة الى ان لا يكون لديها عمل اهم من السعي لمحق الخلافة الاسلامية قطعاً للرأس وبتراً للذنب ثم امانةً للعالم الاسلامى ميتةً لا تقبل الريب كما تشتهي هي وتريد تكميلاً للجنايات وتشديداً للويلات ثم اتماماً لما لها هنالك من الغايات

﴿ الجناية الثانية عشرة ﴾ فرط عدائها للدين المحمدي والشريعة الغراء وفرط بغضها لابناء هذا الدين وقرآنهم المجيد . وذلك حيث انتهت بها سلسلة الجنايات الى هذه الجناية الكبرى وتفصيله : انها بعد التدقيق والتعميق عرفت ان الخلافة الاسلامية حية رغم انفها ما دام الدين الاسلامي حياً لانها فيه دعامة كبرى وركن عظيم فلا يمكن القضاء عَلَى المسلمين الا بمحو خلافتهم ثم يستحيل هذا اعني محو خلافتهم ما دام دينهم ثابتاً ، فمن هنا كان ابغض الاشياء الى الانكليز واثقلها عليهم الدين الاسلامى الحنيف ، يرون حياتهم بموته وتمام منفعتهم بالقضاء عليه . وهذا ما دعا بعضاً من اعاظم ساستهم ان يصرح بسوء النية ازاء الروضة المطهرة النبوية وبعضاً ان يصرخ في مجلس الامة البريطانية بان العالم لا يستريح ما دام القرآن موجوداً ، علماً منهم بان اس الاساس لهذا الدين هو القرآن وسنة من انزل عليه القرآن . ولكن غلادستون اللعين قد اطلق عاماً

واراد خاصاً وهو صادق فيما اراد باطناً: اجل، ان العالم البريطاني لا يمكن ان يستريح ما دام القرآن موجوداً لان الخائن خائف ولا يرجى مع الخوف راحة وانه ليعلم خيانة قومه ودولته لاهل القرآن ثم يعلم ان هناك سلسلة تنتهي الى هذا الكتاب المجيد وهي انه: ما دام هذا الكتاب حياً فالدين الاسلامى حي، وما دام الدين الاسلامي حياً فالخلافة الاسلامية حية، وما دامت الخلافة الاسلامية حيةً فان المسلمين لا يموتون، وما بقي للمسلمين حياة فلا بد ان يستيقظوا من رقدتهم يوماً ما فينتهزوا الفرصة ويستعيدوا من ابناء السكسون ما غصبته يد المكر والغدر والمخاتلة والمخادعة . سلسلة حيوية للعالم الاسلامي هي التي بعثت الدولة البريطانية والقوم السكسوني عَلَى التسلسل في الجنايات وركوب الجرائم المركبة والآثام المتداخلة فكانوا شر الامم للمسلمين واشد الاقوام عداء لهم وضرراً

﴿ الجناية الثالثة عشرة ﴾ دسّها عَلَى الدين الاسلامي من طرق متعددة والاعيب شتىً لافساد عقائد بعض والعبث بافكار آخرين سعياً من وراء ضالتها المنشودة : فتراها تعزز «المبشرين» بينما تزعم لنفسها التفرد في حرية المذاهب والاديان فتبثُّهم كالجراثيم السامة في البلاد الاسلامية ليدنّسوا هواءً نقياً ونسيماً صافياً .

ودسائسها للمقصد نفسه تحت ستار التعليم اشد وطئةً واكثر وبالاً اذ تحجر عَلَى ادمغة الفتيان والفتيات من المسلمين فتخط على صفحاتها الخالية ما شائت وما شاء هواها فلا يخرج من مدارسها الصبي او الصبية من ابناء القرآن الا وقد فسد منهما ما يعجز عن اصلاحه من ينتبه لهما في الزمن الاخير عَلَى ان اولياءهما عن ذلك غافلون . وقد استطلعت هذا الخبء بنفسي في غير قليل من مدارسها المتخصصة للذكور والاناث فعرفت السر في ضعف ايمان الذين ترعرعوا في حجر مدارس الانكليز اواُشربتْ روحهم حب اولئك الطغام عَلَى العمياء يقودهم التقليد ويسوقهم نكد الطالع . وثبت عندي عياناً ما كنت اعتقده فكراً من ان كل مدرسة اجنبية في بلاد المسلمين لم تشيد مبانيها الضخمة لسواد عيونهم بل لتسويد صحائفهم الدينية والملية والوطنية بافساد ما تحمل جوانحهم من الاحساسات الشريفة ازاء هذه المقدسات . ولو ذكرت ما اتفق لي من تتبعي دسائس الاجانب ازاء مقدساتنا وجناياتهم على ابنائنا في مدارسهم المشؤومة لخرجت عن الصدد في هذه العجالة ولمستّ الحاجة الى تأليف كتاب اكبر منها ولكن اكتفي الآن بهذا القدر من البيان وفيه بلاغ لقوم يتدبرون

﴿ الجناية الرابعة عشرة ﴾ فرط عدائها السياسي للهلال

العثماني : فان قولهم « ما اخذ من الصليب يعود الى الصليب وما اخذ من الهلال لا يعود الى الهلال » كلمة اول ما رنّ صداها في غرف السياسة البريطانية ثم نقلته الريح وطيّره البرق في سائر الاندية والمحافل السياسية . وما بقي عَلَى وجه البسيطة مسلم واحد يوحّد الله فلن ينسى المسلمون ما اظهره «ادوار دغراى» من الدناءة والوقاحة ازاء الدولة العثمانية في حربها مع دول البلقان مما كانت روحه وخلاصته تطبيق تلك القاعدة التي وضعها اسلافه اللئام . وذلك : اذ أُعطي القرار في مبدأ الحرب بانها لا تغير شيئاً من الخريطة الجغرافية حيث كان الظن ان الغلب سيكون في جانب العثمانية ، فلما تحوّل طالع الحرب وبدا ما لم يكن في الحسبان ضُرب بذاك القرار عرض الحائط وجعل الحكم لافواه المدافع ورؤوس الحراب تنكيلاً للعثمانية وسلباً لاملاكها الموروثة منذ عصور . وما كان هذا التدبير والتغيير الا في غرف السياسة والبلاط الملوكي من حضيرة « لندن » وما كان الباعث اليه الا فرط العداء للمسلمين وخلافتهم المقدسة لان الدولة العثمانية هي الدولة الاسلامية الوحيدة التي لها حق المطالبة بحقوق المسلمين والمحافظة عَلَى بيضة الاسلام ولان الهلال هو الممثل لعظمة الخلافة الاسلامية ومجد ابناء هذا الدين الحنيف

تلك الامهات من الجنايات الانكليزية عَلَى الاسلام والمسلمين . ولو بسطنا البحث عن تفاصيل ما تولّده تلك الامهات كل يوم من فروع العدوان وجزئياته لاحتجنا الى مجلدات ضخام ثم ربما نفدت المحابر وعجزت الاقلام فان احصاء الحوادث اليومية من مظاهر الحياة وهي شتى وفي اقطار فسيحة وهي ذات شان ليس مما ينبسط له بساط الامكان

ثلاث وجائب

يقال: الجهل لا يكون عذراً . وبهذا جائت الشريعة الاسلامية لان الانسان من لوازمه قابلية العلم ، فاذا كان الجاهل غير معذور وهو جاهل فاولى ثم اولى ان لا تقبل له معذرة بعد ما يتضح له الامر ويكون به عالماً . وقد كشفنا لك النقاب عن وجه الحقيقة ايها المسلم ورفعنا الستار عن اعمال الانكليز وآمالهم ومكايدهم ومخادعاتهم وخبث نياتهم وسوء طويتهم ازاء العالم الاسلامي بما نخال الزيادة عليه اطناباً مملاً ، فعرفت انهم عدوك الذي يتربص بك الدوائر وظالمك الذي لا يرحمك ثم عدو دينك الحنيف وشرفك الملي وخلافتك المقدسة وهلالك المحبوب ، وانهم رأس البلاء عليك والنوازل فيك والويلات لك ، فماذا يجب عليك اذن ايها المسلم ؟

ان هناك ثلاث وجائب : الحذر والانتقام ثم التاريخ محكمة كبرى

هذه وجائبك التي ان قعدت عن القيام بها فليس لك من معذرة امام الانسانية وابنائها من الامم والاجيال في معترك الحياة الدنيا، ثم امام الله وامام رسوله يوم البعث والنشور يوم تأتي كل امة بكتابها لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب

الحذر

اما الحذر فلان الله تعالى امرنا به معاشر المسلمين في نص كتابه العزيز، قال تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » فوجب علينا شرعاً ، ولان شأن العدو ان ينتهز الفرص للفتك بعدوه واثارة الشرور له وايقاد الشر، والحذر مبدأ النجاح في رد الكيد ودفع الاذى والذود عن الحوض والذب عن الحقيقة، ولهذا يقال: من نام عن عدوه ايقظته النوائب، فوجب عقلاً ، وما تحقق وجوبه من طريقي العقل والنقل فلا عذر لمن يتقاعس عن القيام به ، لاسيما اذا كان العدو ممن عُرف بالمكر والخداع والدس والمخاتلة كامة الانكليز وساسة بريطانيا الجائرين

الانتقام

واما الانتقام : فلان الله يقول في نص كتابه خطاباً للمؤمنين « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » واي عدوان اكبر من جنايات الانكليز على العالم الاسلامي كما مر بيانه ؟ على انى بلسان الدين لا استطيع ان ادعو اخوانى المسلمين الى نية الشر وايقاد نيران العدوان الا بالدرجة الثانية لان هذا الدين الحنيف ينزع الى التسامح في الدرجة الاولى والعفو فيه اقرب للتقوى ، ولكن متى ..؟ ذلك : حيث لا يهضم حق ولا تمس كرامة ؛ اما وقد هضمت حقوق ومست كرامات فاقل ما يجب على المسلمين ان يحفظوا حقوقهم المغصوبة ويصونوا كرامتهم الممسوسة من عبث العابثين وتخرص المبطلين ولو اراقوا في سبيل ذلك آخر قطرة من دمائهم المضطربة في عروق حميتهم الدينية تلك الحمية التي خضع امام عظمتها التاريخ وسطّرها في ديباجته بحروف من نور

تذكرة

مرّ بك في آخر الفصل الاول ان من يلي امر المسلمين لا يجوز شرعاً ان يكون غير مسلم ، وان غير المسلم لا تجب طاعته على المسلمين

اذا ولي من امرهم شيئاً . واثبتنا لك ذلك استدلالاً بكتاب الله وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قلنا لك : فاعلم هذا وعضّ عليه بالنواجذ ايها المسلم حتى يمرّ بك ما لاجله يساق الحديث . فالآن نذكّرك بذاك الحكم الشرعي ونقول لك باسم الشريعة الاحمدية الغراء : انه لا ولاية لبريطانيا ثم لا طاعة لها عليك ، واذا اعتقدت بان لها عليك شيئاً من ذلك فقد خالفت امر الله في كتابه العزيز وامر نبيّهِ في حديثه الشريف . ولا يعدُّ اعتقادك هذا او عملك بمقتضاه من التسامح الذي اشرنا اليه آنفاً . فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . ان غاية ما هنالك ان دين الاسلام يأمر بالعدل والاحسان ثم يحقن الدماء بقدر الامكان وليس من العدل ان يهضم لك كل حق ويعجم لك كل عود حتى تسام خسفاً وترهق في دينك ارهاقاً ثم تقيم عَلَى الضيم وتصبر عَلَى الهوان تتقلب من مضاجع الذل عَلَى مثل القتاد ، كأن لم يبلغك حديث نبيّك الاعظم صلى الله عليه وسلم : «المؤمن لا يذل» . «لا يحلُّ للمؤمن ان يذلّ نفسه» كن من حزب الله تكن من الغالبين . إثأر لنفسك يثأر الله لك . اعتزّ بالله فان العزة لله جميعاً . مِمّ تخشى ؟ فالله احق ان تخشاه . أمن الموت ؟ قل ان الموت الذى تفرّون منه انه ملاقيكم . أآنس انت بحياتك هذه ؟ تعست حياة الهوان !

بئست الحياة لا هي شرف في الحياة الدنيا ولا نور امام الله يوم النشور . خذ ثارك من عدوك لتحيا سعيداً وتموت سعيداً . اعتدِ عَلَى عدوك بمثل ما اعتدى عليك تأخذ ثاراً وتغسل عاراً . ان اخذ الثار من نواميس المنتقم الجبار

كذلك اخذ الثار من آثار الغيرة ، وهي خير ما يتحلى به الرجل في مزاولة الحياة فان من لا غيرة له لا تكاد ترجو عنده خيراً . ولهذا نوّه بشأنه ارباب الهمم العالية ولم ينكره ذووا العقول الراجحة ، وما احسن ما يروى في هذا الباب للمرحوم مدحت باشا الشهير اذ يقول :

فـلاَ والقنا والمرهفاتِ البواترِ
فـلا ترةً ابقيتُ لي عندَ واترِ
أيذهبُ خصمي في دمي لي مضيعاً
ولستُ اذيقُ الخصمَ حدَّ البواترِ؟

وليس للمسلمين عند الانكليز ترة واحدة ، بل ترات متتابعات بعضها يلعن بعضاً ، فمتى ثم متى يهب المسلم من غفوته وينهض من كبوته فيأخذ ثاراً ويغسل عاراً ويعتدي عَلَى ظالميه بمثل ما اعتدوا عليه؟ ولا عدوان الا عَلَى الظالمين

هذا ، ولا يظن اخواني المسلمون اني اكلفهم شططاً او اتمنّى لهم

المستحيل ، فانما الايام دول والحر لا يعجزه امر ومن صدقت عزائمه فما عليه ان يطمع في عنقود الثريا يقطفه من صحن السماء . ثم الفكرة تكوّن الرجل والمرء حيث يضع نفسه : فمن تصوّر في نفسه العجز كان عاجزاً ومن تصوّر فيها المقدرة ثم اتى الامور من ابوابها فلا يلبث ان يكون كما تصوّر . ومن اعار التاريخ نظرة مستبصر رأى بين ذفتيه ما يوقظ فكره ويحرّك عروقه ثم يقوي عزمه و يبعث فيه روحاً توّهله لركوب ذاك البحر وخوض هاتيك الغمرات :

فكم ثمة من قرون خلت كانت ذوات عروش عاليات وقصور شامخات تحكم بلاداً فسيحة الاكناف واقطاراً مترامية الاطراف وامماً عتيدة واقواماً اولي بأس شديد ثم تحطمت العروش وتهدمت القصور واقفرت الربوع ونعق الغراب على التابع والمتبوع . وما كان مدبر هذه التصاريف ومديرها وموجدها وسميرها الا افراداً معدودة استفزّتهم الغيرة وهزّتهم الحمية ثم بعثتهم الفكرة فاستضائوا بنور العقل واسترشدوا بنجم الحزم ثم فكروا وقدّروا ودبروا واستبصروا حتى اذا نضجت الفكرة واخذت مأخذها الروية وطفق الشرر يتراى من خلال الرماد انفجر البركان وكان ما كان ، فاذا هناك عروش خاوية وقصور

خالية وتيجان تنعي اصحابها تمزقها الايدي وتدوسها الاقدام

كأنْ لم يكنْ بينَ الحجونِ الى الصفاَ

انيسٌ ولمْ يسمرْ بمكةَ سامرُ

فيا سبحان الله ايها المسلمون ..! ألستم رجالاً كما ان اولئكم رجال ؟ أتستطيع امراً افراد معدودة وتعجز عنه امة تعدُّ ثلاثمائة وخمسين الف الف نسمة ؟ ثم ليس عدوكم بالنسبة الى عددكم الكبير الا واحداً من عشرة ، ومعكم الحق ومعه الباطل ، وعوامل الطبيعة بجانبكم لا بجانبه ، ثم الله معكم اذا كنتم معه وكفى بالله ولياً ونصيراً

ألستم تثقون ان الله يمهل ولا يهمل وانه كان للخائنين خصيماً ؟ ألستم تثقون ان الله يملي للظالم فاذا اخذه لا يفلته وانه لا يحب الظالمين ؟ ألستم تعلمون ان مرتع البغي وخيم وان عقبى الظالمين البوار ؟ عَلَى ذلك جرت سنة الله في عباده من حيث اثبتته التجارب وعضدته الحكمة وايّدته نواميس الطبيعة وابتسمت عن اطّراد القاعدة فيه ملامح التاريخ . ام لم ينبئكم تاريخ اقدار الامم بما انطوت عليه دفتاه ولا ظنَّ في مسامعكم ما يقول الشاعر الحكيم :

عواقبُ البغيِ لها صرعةٌ تنزلُ السلطانَ عن عرشِهِ

اذا طغى الكبشُ بشحمِ الكلى أُدخلَ رأسُ الكبشِ في كرشِهِ

ام حتى الآن لم تنتبهوا لبغي عدوكم وطغيانه وظلمه وعدوانه ولا احسستم بالم العذاب الذي لم يزل لاحقاً بكم من وجهته والكوارث التي لم تفتأ تنتابكم عَلَى يده ؟

اما قد رفع الستار وكشف الغطاء ولم يبق عَلَى وجه الحقيقة من غبار فلا عذر لمعتذر وليقل اللائمون ما شاؤا ان يقولوا في المقصّرين

ان طفاح قلبي الامل وملء اهابي الثقة : ان الله سينصفكم من عدوكم ايها المسلمون . سيأخذ بهذه اليد الشلاء اذا حركتموها . ان نزول المائدة من السماء كان معجزة لنبي من اولي العزم وقد مضى دور النبوّات ، فنهوضاً ولو بعض النهوض تجدوا نور الله يسعى بين ايديكم ليطفئ تلكم النار

انكم لتعلمون ان لله رجالاً اذا ارادوا اراد ، فكونوا انتم اولئك الرجال

ما اريد ان انبّئكم لكم او اتكهّن ، ولكنها فراسة مؤمن ينظر بنور الله ، يؤمن بانه تعالى حكَمٌ عدل لا بد ان يأخذ للمظلوم من ظالمه ، وقد طفح الكيل « وامتلأ الحوض وقال قطني » ولم يبق في قوس الظلم من عدوكم منزع وقد طغى الكبش بشحم كلاه وآن للرأس ان يدخل في الكرش ... فقيّدوها بشرى حتى تتمخّض بها الايام

عَلَى بساط الوجود، وللدهر تصاريف وماذلك عَلَى الله بعزيز، فاستخيروا الله يخرْ لكم واستفتحوا يفتح عليكم ثم استمطروا سحائب رحمته ينزل عليكم من السماء ماء فيحي الارض بعد موتها وكذلك تبعثون

عَلَى ان اعدائكم الانكليز قد كشفت عن خبثهم هذه الحرب العامّة وظهر سرهم وافتضح امرهم : فاذا هم ثعالب في جلود اسود او فيران في ثوب افعوان · خاضوا غمار الحرب ومعهم سبع دول تشد ازرهم — روسيا، فرنسا، اليابان، صربيا، بلجيقا، الجبل الاسود، ايطاليا — وثامنهم كلبهم دولة بريطانيا العظمى!! وها انكم ترونهم ما وردوا مورداً للحرب الا وباؤا بخزي عظيم · تمزقت الجلود فهرولت الثعالب وانضي الثوب فتواثبت الفيران · هذه دولة بريطانيا وهذه هزائمها المترشحة خزياً وعاراً، فاين اسطولها الذي كانت تهدد به العالم وتمخر به في بحار الجور والغرور ؟ هذه ضفاف الدردنيل وهذه مياهه الزرقاء فماذا كان من شأن ابناء السكسون هناك ؟ هل استطاعوا ثمة الا ان يكونوا اغناماً بين يديّ قصاب[1] ؟ وما ذاك القصاب الا ابطال المجاهدين من ابناء الهلال · عرج ايها المسلم عَلَى ساحات القتال هناك ولتشهد عيناك ما شهدت عيناي، فيا عين ما اوفرك قرة، ويا قلب ما اكثرك مسرة ١٠٠

(١) ثم كانت الخاتمة ان ولّوا الادبار بالفشل والعار

هنالك يصعد المسلم نظره في ابناء القرآن فيذكر قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، « إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » ثم يصوب النظر في اعدائه فيتلو قوله عز اسمه : مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ

كذلك شأن ملكة البحار !! دولة بريطانيا العظمى !! في مياه الدردنيل ومعها حليفتها فرنسا تمدها بالذخائر والجنود والاسلحة والنقود ومن ورائها بقية حلفائها ، فكيف بها لو كانت وحدها لا حليف لها ولا ظهير ولا موازر ولا نصير ؟

كذلك شأن ملكة البحار !! واسطولها العظيم !! ازاء الامة العثمانية التي عاندها الدهر منذ عصور وطحنها الاستبداد غير يسير ثم انهكتها الحروب المتتابعة والدسائس المتوالية ولم تفتح عينها بعد لتجمع امرها وتأخذ حذرها وتستكمل قواها ، فكيف بالانكليز لو تألب عليهم العالم الاسلامي اجمع وامدّ دولته الوحيدة دولة الخلافة والهلال بالرجال والاموال ومخر لنا اسطول عظيم و كنّا كاملي العدد والعُدد ؟ وان هذا لكائن ان شاء الله ان لم يكن اليوم ففي الغد

الا فلتعلم دولة بريطانيا ان الخضاب قد نصل وان ستار الاوهام قد تمزق وانه قد دنا زمن اخذ الثار وغسل العار وصيحة حماة الاسلام بصوت واحد :الانتقام الانتقام . !

التاريخ

واما التاريخ فلانـه محكمة كبرى . وعدوكم ايها المسلمون كما عرفتموه رب جنايات ، وشأن الجاني ان ينقاد الى المحاكم صاغراً كيما يخزيه الله و يذوق وبال ما جنته يداه .... فهلموا الى محكمة التاريخ في ظهر الغيب لتحاكموا عدوكم على عدوانـه وانفسكم على تقصيرها حتى يأتي امر الله . وكل آتٍ قريب

محكمة التاريخ الكبرى

والانكليز والمسلمون

ذوقوا عذاب الخزي اليوم بما كنتم تعتدون

تنحصر الازمنة في ثلاثة : ماضٍ لا يستعاد ، وحال تمثله آنات متتابعة تمرّ الخاطف لا تكاد تقبض عليها يد الوجود ، ثم مستقبل رحب صدره ، مظلم قعره ، لاجله العمل وعليه المدار ، فما اوسعك يا صدر الغيب ، ثم ما اوفر قيمتك يا زمن المستقبل

المستقبل : غدك الذي تعمل له ثم يومك الذي تسعد فيه او

تشقى ، ثم امسك الذي يرمي بك في حجر التاريخ ، فالمستقبل هو الكل في الكل

اسخف الناس رأياً من شغله يومه عن غده ، واكبرهم حماقة من طوّحت به ذكرى امسه عن كليهما ، وانما اللبيب الالمعيّ من يعمد الى الحياة ونعيمها يلتمسهما بين ثنايا المستقبل

ايها المفتون بامسه ! لست بمدرك له . وايها المغتر بيومه ! انه ربما يأتيك بالنوائب . ثم ايها الغافل عن غده ! انك لفي ضلال مبين

هي ايام ثلاثة لا رابع لهـا ينقضي عمرك بينها ثم مصيرك ومصيرها التاريخ ، فاجهد لنفسك اذا ما وقفت امام تلك المحكمة الكبرى ان تكون ذا جبهة بيضاء

« وانما المرء حديثٌ بعدَهُ فكنْ حديثاً حسناً لمنْ وعى »

اتظن انك خلقت عبثاً ؟ كلا:

انّ هذا الوجودَ اعظمُ شأناً انْ يعرّى عنْ حكمةِ الايجادِ

ام تزعم ان اعمالك تذهب سدى ؟ هيهات :

لكلِّ عينٍ اثرٌ منْ بعدِها فاستبقِ ما يُكسبُ بعدَكَ الثنا

ان من وراءك من يناقشونك الحساب وقد طوتك يد الايام واستحال جسمك الى تراب ! فاذكر يوم يؤتى بك الى محكمة التاريخ الكبرى

رب اجيال لا في الاصلاب بعد ولا في الارحام يلقح بهم القابل ، حتى اذا تمخض بهم عَلَى بساط الوجود رابك منهم اخصام الدّاء وراعك فيهم حكم عدل فاحذر ان يكون جزاؤك يومئذ شر الجزاء

لكأني بالزمان وقد دار عَلَى غير محور ، فاذا هنالك ابصار ليس عليها غشاوة وبصائر لم يطمس عليها العمى ثم رؤوس لاسكرت بخمرة الطيش ولا صعّرت خدّ الغرور ؛ واذا محكمة التاريخ ملئى بامثال اولئك النبلاء المفكرين

لكأني بمنادي الامم وقد نادى فيها يدعو الواحدة بعد الاخرى ، فمنهم المقصرون ، اولئك الذين ظلموا انفسهم بترك الواجب وجهل مغامز الحياة ثم بالاستكانة للحوادث والاستسلام لصروف الدهر تعبث بهم الليالي كيف تشاء

ومنهم المعتدون ، اولئك الذين امتطوا غارب الجد وقبضوا عَلَى عنان العمل وتمتعوا بمظاهر الحياة ، حتى اذا اطغتهم النعمة وقادهم الهوى واستزلّهم الشيطان تسلّقوا غير ذروة واعتسفوا غير طريق فولعوا برقاب الاحرار ان يمتلكوها ودماء الابرياء ان يسفكوها وحرمات الضعفاء ان ينتهكوها ، وما فريستهم في ذلك المضمار الا المقصرون اذ نصبوا لهم حبائل من انفسهم : فعمدوا الى بسطاء

غرّروها وجهلاء كادوها ومساكين استضعفوها وابالسة قامروها ؟ فاذا هما فريقان : قويّ سعد بشقاء ضعيف ، او محتال عبث باقدار مخدوع . وان شئت فقل غاشم اجهز بمدية خداعه عَلَى بائس مسكين

لكأني بالمنادي وقد نادى بالفريقين ، فاذا في مقدمة القوم الانكليز والمسلمون

الله اكبر من ذاك اليوم العصيب يوم يندلع لسان السائل ولا يدري المسئول كيف يجيب

رحماك يامسلم ! ألم يخلقك ربك حراً ؟ فكيف رضيت لنفسك ربقة الاستعباد ؟ أليست النفوس مجبولة عَلَى حبّ عزها ؟ فكيف رضيت لنفسك الذل والهوان ؟ ام كيف تسنى لك ان تشذّ عن مقتضى الفطرة وايجاب الطبيعة؟

رحماك يا مسلم ! ألم يصفك قرآنك بالعزة ؟ ألم يعهد اليك نبيك ان لا تذل ان كنت مؤمناً ؟ فكيف عصيت نبيك وما اطعت امر القرآن ؟ ام خمدت احساساتك وماتت عواطفك حتى صرت لا تفرق بين الضدين : بين كونك عزيزاً وكونك ذليلاً ؟

ان الذل مرّ المذاق وان العز ما فوقه حلاوة ، فكيف خفي عليك طعمهما ؟ ام لم تكن ترى اليد العليا خيراً من اليد السفلى ، فلم تبال انك مقهور مأسور تتحكم فيك المطامع وتعبث بك الاهواء ؟

رحماك يا مسلم ! ألم تك تعلم ان لله عليك موثقاً ان لا تألو جهداً في الذب عن حوزة دينك ، وبيضة بلادك ، ومجد شريعتك ، ليعلو صوت الحق ، ويخفت صوت الباطل ، فتقام حدود الله في ارضه كما شرعها على لسان عباده المخلصين ؟ فكيف لم تغضب لدينك وحماه مستباح ، ولاوطانك وصعيدها ملوّث ، ولشريعتك ونجمها آفل ، وللحق وانت عاجز ان تجهر به ، وللباطل وقد غمرك تياره ، ولحدود الله وهي معطلة بين ظهرانيك ، وانما مقاليد امورك بيد عدوك وعدو دينك يحكم فيك كما يريد هواه ، لا كما يأمر دين الله ؟

رحماك يا مسلم ! اي جامعة كانت بينك وبين اوائك الفجرة الطغام حتى لذّ لك الذل بين ايديهم ، والاسر في اغلالهم ، والرضوخ لفرعنتهم ، والرضا باهوائهم ، الا ان تصغرانت وهم يتعاظمون وتضعف ويقوون ، وتهن ويعلون . وتفقر ويثرون ، وتذل ويعزون ، وتشقى ويسعدون وهكذا يحيون بموتك ثم يكونون قوماً عالين

تالله ما كان بينكما من جامعة : فالدين غير واحد ، والجنس غير واحد ، والوطن غير واحد ، والتقاليد غير واحدة ، والعادات غير واحدة ؛ فكيف امكنك العيش في ظل من لم يجمعك واياه جامع . بل كل طرائق الحياة كانت بينكما مدعاةً للتفريق كأنما

خلقتما على طرفي نقيض ؟

ما كادت تجاوب اصداء هذه الاسئلة في فضاء المحكمة حتى امتزج بها صوتان — كما دوى الرعد من خلال الغمام — ملء احدهما لوم وعذل ودهشة واستغراب ، وطفاح الثاني تلهف وتأسف ، وحرقة و بؤس ، ثم تشديد لائمة وتحميل تبعة ومطالبة حقوق .

اما الصوت الاول : فضجيج المتفرجين في ذاك المجتمع العام من طبقات الامم جمعاء يقولون : حنانيك يا مسلم يا ابن النور وربيب الظلام ! كيف مرّ بك مثل هذا الجفاء ثم صبرت على مرّ العذاب ؟ ان الصبر لمحمود ولكن في غير مواطن الذل ، فكيف تجرعت كأس صابه ؟

ألم يكن بين جوانحك قلب حساس وفي اعصابك عرق نابض ؟ ام كنت تخشى الموت فاستعذبت دونه الهوان ؟

ها ان الموت الذي كنت تخشاه قد اصابك ، وها انك قد انحلّ جسمك الى رفات . ولكن ذاك الهوان لاحقٌ بك عاره ، ها انك قد متّ ولكنه حي لن يموت . هلاّ تذكرت يوم يذكر كل امرئ بعمله وتأتي كل امة بكتابها في مثل هذا الموقف الرهيب ؟ اما وشرف الانسانية ومجد التاريخ يا مسلمي القرن الرابع عشر انكم لمقصرون

واما الصوت الثاني فعويل الاحفاد يشكون من تبعة الاجداد ،

وصراخ الاخلاف يحاكمون اعمال الاسلاف ، يقولون : ألم تكونوا تعلمون ان من وراءكم ذريـةً انتم تاركوها ، وان امامكم مستقبلاً طويلاً . فماذا قدمتم من العمل لهذا ، ومـاذا ادخرتم من التراث لاولئك ؟ لقد جنيتم علينا وعلَى انفسكم وكنتم لنا ولها ظالمين . وما اورثتمونا الا الذل ، وما ادخرتم لنا الا الهوان ، وفي طيهما مشاكل ومتاعب وكوارث ومصائب . ما حفظتم لنا وطناً نعيش فيه عيش الكرام ، علَى ان طينتنا عجنت من ترابه واجسامنا غذيت بمائه وهوائه . اورثوكم فما حفظتم التراث ، ثم لما جئنا اورثتمونا عدماً .. اولدوكم احراراً ، فلما افضت النوبة اليكم اولدتمونا وفي اعناقنا الاغلال

ألم تكن هذه الاوطان امانة اسلافكم من قبل ، فكيف اضعتموها ؟ ألم تكن وديعة جيل لآخرين ، فاين حظنا منها ، ولماذا لم تحفظوها ؟ كان لكم كرامة فرضيتم بمساسها . وكان لكم عزة ، فقوضتموها من اساسها . استنمتم للحوادث فغادرتكم احاديث . واستسلمتم للكوارث فتركتم الاعيب . لا همتكم انفسكم ولا عنيتم بالخلائف من بعدها ، فما كان همكم في الحياة ، وكنتم تصنعون ماذا ؟ اما انه الحنظل انتم زرعتموه ، ونحن ادركنا موسم حصاده ، وان نصيبكم منه لاوفر . لقد كان حرياً بكم ان تذكروا مثل

موقفكم هذا في يومكم هذا

اليك اللهم المشتكى من اسلاف ما اورثونا الا العناء . ما نقصوا عَدداً ولا فقدوا — لو ارادوا — عُدداً ، ولكنهم جهلوا تخدعوا، وربما تنازعوا ففشلوا ثم جبنوا واستيأسوا وكانوا لنا ولانفسهم ظالمين : انهم — كما حفظ اعمالهم التاريخ — لا دينك نصروا ، ولا اوطانهم حفظوا ، ولا ذادوا عن حقيقة ولا ذبوا عن حمى ، وانما مرّوا بالحياة وهم اموات ، فما كانوا في الوجود الا غوغاء

اما وشرف الانسانية ومجد التاريخ ايها الاسلاف من مسلمي القرن الرابع عشر انكم لمقصرون

هنالك ارتعدت فرائص واحمرّت وجنات ولم يكد المسئول يجري جواباً الا دقّات قلب واجف وقطرات جبين محمرّ مما لاينفس كرباً ولا يكون الا حجةً على صاحبه في مثل ذاك الموقف العصيب

ثم سيق المقصرون حيث سيقوا وجيء بالمعتدين فكان الموقف ادهش والامر ادهى وامرّ . اذ ماجت الامم بعضها ببعض وعلت الصيحة وقامت الضجة وناذى منادي الموقف : الا لعنة الله على الظالمين

ثم خفّت الجلبة وخفتت الاصوات فلم يسمع الا صوت المناقشة للحساب :

لا مرحباً ولا اهلاً ولا مناخاً سهلاً ولا جملاً ولا رحلاً !

آه ثم آه : يا اعداء الانسانية واعداء الله ! باي وجه قدمتم عَلَى محكمتهما وفيها سجلّ اعمالكم مسطور وتاريخ حيانكم محفوظ ؟ تلك صحائف خطت بمداد من دم وحروف من نار وما خلال سطورها الا ظلم وظلام . خذوا كتابكم فاقرؤه على اعين الناس ثم اشهدوا عَلَى انفسكم انكم كنتم عَلَى الانسانية شراً وبيلاً

لقد نصل الخضاب ورفع الستار وبدت الحقائق بارزة للعيان، فاقرؤا كتابكم عَلَى اعين الناس لعلهم يشهدون

ها انتم هؤلاء كنتم شرّ عباد الله لعباد الله . كنتم سماسرة الفتن توقدون نارها بين الامم حتى اذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس ووهت قوى الغالب والمغلوب وتم لكم الدست مددتم يد المنتهز وفغرتم فم النهم فازدردتموها لقمة سائغة وغنيمة باردة . وما عليكم انكم انضجتموها بنار كان وقودها نفوساً بريئة ودماء طاهرة

كنتم تنسجون من غزل السياسة رداء رحمة وحنان ثم تخيطونه بابر من شر وخيوط من شرر وتجعلون في بطانته شيئاً من السمّ القاتل ثم تعمدون الى البسطاء من الامم والضعفاء من الشعوب فتلبسونهم ذاك الرداء حتى اذا قضيتم عَلَى حياتهم وتفسخت منهم الاشلاء او لمتم عَلَى لحومهم وليمة ذوات الانياب

كنتم تقولون غير ما تفعلون وتظهرون غير ما تضمرون ، وقد ارخيتم ستاراً وجعلتم الايدي تلعب من ورائه ، فوارحمتاه لامم هنالك صرعتموها بمخالب الغش ثم اجهزتم عليها بسكين الغدر وهكذا ضحيتموها تحت اقدام المطامع والاهواء

طالما لبستم ثوب الحرباء واستعملتم الالفاظ عَلَى عكس ما وضعت له فاتخذتم العدل قنطرة للظلم والصدق سمساراً للكذب والحرية طريقاً للاستعباد والصلاح مجلبة للفساد تشويهاً للحقائق وتمويهاً على البسطاء الاغرار لتمتصوا بذلك دماء الشعوب وتسترقوا رقاب العباد وكذلك ما زلتم تقتلون الانسانية باسم الانسانية حتى افتضح امركم وجاء يومكم الموعود : فاليوم يؤخذ للمظلوم من ظالمه واليوم تبرد الانسانية كبداً وتشفي غليلاً .

كنتم اعداء الامم عامة والمسلمين خاصة وكنتم عَلَى بني الانسان اشد ضرراً من الوحش الضاري : ما استعرت نار الا وانتم موقدوها ولا ثارت فتنة الا وانتم محركوها ، فقبحاً لهاتيك الجرائم ولا رحم الله هذه الوجوه

قبضتم عَلَى خناق اربعماية الف الف من بني الانسان وانتم لا يتجاوز عددكم العشر من اولئك المساكين البائسين صرعتموهم اغتيالاً وحاربتموهم بسلاح المراوغة والمخاتلة حتى اذا وقعوا في الفخ

لم ترقبوا فيهم الاّ ولا ذمة ولا اتقيتم فيهم خالق الارض والسماء، تسعدون بشقائهم ثم تتخذونهم كالعجماوات جرحها جبار . تتعاظمون عليهم وبهم تمّت لكم العظمة، وتحتقرونهم ولولاهم لكنتم احقر من لا شيء . تتحكمون فيهم بحكم السيد في عبده وهم اهل الدار وانتم الغرباء . ثم الطامة الكبرى انكم اعميتم ابصارهم ان يشهدوا اعمالكم هذه باسوأ منها واقبح وصمةً واكبر ضرراً : وذلك انكم تفسحون لهم في مجالي الشهوات الحيوانية وتلفنّنون في تمهيد السبل لهم الى افساد الاخلاق بمثل هاتيك المخازي وتخدمونهم اكثر من ابليس في طرق الفظائع، حتى اذا عامت النفوس في تيار هواها واشتدّ من الابصار عماها سميتم ذلك حرية وعدلاً واحساناً وفضلاً ومننتم عَلَى القوم من ذلك بما كان اس النقمة لهم والبلاء عليهم ثم لا يكسبهم بين الامم الا عاراً وشناراً

ما كان مثلكم ومثل المسلمين الا مثل السمرمد مع الجراد = تسلطتم على ذاك العدد الكبير فابتلعتم اكثر من ثلثه في سنيهات معدودات ، عشرات الملايين خدعتموهم كما تخدع العذراء في خدرها، ثم اوثقتموهم بالاصفاد والاغلال . اتخذتموهم منايح تستدرونها اشبه بالسوائم ، ثم طفاح قلوبكم احقاد عليهم وسخائم

امتُم لهم كل حق فاحييتم لكم بذلك كل باطل ، وكانوا

سلاحكم الذي به صرتم اهل حول وطول، ثم لم يكن حظهم لديكم الا ان وسعتم نطاق مطامعكم فيهم فلم تكتفوا بسلب حقوقهم المادية بل صممتم الاغارة عَلَى حقوقهم المعنوية كذلك : فناويتم العداء معتقداتهم ومقدساتهم العظمى ، وفي مقدمة ذلك قبر نبيهم وقرآنهم الذي هو ينبوع دينهم، ترون ملتهم امراً زائداً في نظام الكون يجب محوه من خريطة الوجود ، حتى صرح بكل ذلك كبار رجالكم عَلَى منابر السياسة وفي مؤلفاتهم الحيوية

ثم لما كانت تلك النوايا الخبيثة لا يمكن اخراجها من القوة الى الفعل ما دام للمسلمين رابطة تلم شتاتهم وتجمع كلمتهم ازاء مثل هاتيك الطوارق ؛ الا وهي مقام الخلافة العظمى ، فقد حصرتم آمالكم قبل كل شيء في السعي وراء قض بنيانها وتقويض اركانها ليتسنى لكم محو الملة الاسلامية بمحوها من خريطة الوجود

ثم رأيتم ان خير طريقة توصلكم الى حل هذه العقدة ان تبذروا الشقاق والنفاق بين طبقات الامة الاسلامية فطفقتم تلتمسون الوسائل وتنصبون الحبائل وتفعلون الافاعيل بما فطرتم عليه من الخداع والمخاتلة لهذا الغرض الساقط كذلك ، استكمالاً لسلسلة المقدمات التي تنتهي بكم — لا قدر الله — الى تلك الغاية السفيلة التي هي جل امانيكم ، الا وهي محو الدين الاسلامي من الوجود

هذا مجمل تاريخ حياتكم بين الامم والملل : اذ كنتم باكورة الفتن ودعامة الشرور ومثال العداء لله ولعباده فتعساً ونكساً لمثل هذه الحياة التاريخية يا اعداء الله ثم اعداء الانسانية

هنا انتهت مناقشة الحساب فاسودت نواصي القوم واخذتهم الرجفة وتكهربت منهم الاعصاب وقد أعترفوا بذنوبهم واعتذروا منها — ورب معذرة اقبح من قذرة — بانها كانت من بطر النعمة وخبث الطينة

ثم اخرجوا من غرفة الحكم تشيعهم امة وتستقبلهم اخرى يحمدون الله الذي خضد شوكة طغيانهم وجدع انف غرورهم . ثم يسألونه تعالى ان يستئصل شافتهم ولا يدع منهم عَلَى الارض ديارا ، قطعاً لدابر فسادهم ومحقاً لجراثيم خداعهم عسى ان تستريح الانسانية وابناؤها من غوائل الفتن وحبائل المكر ردحاً من زمان

ثم يلتفتون اليهم و يقولون لهم : لقد طمس عَلَى نور بصيرتكم الغرور — وانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور — فنسيتم ان للتاريخ محكمة كبرى تزن الاعمال بالموازين القسط ثم تحاسب عَلَى النقير والقطمير ، فذوقوا عذاب الخزي اليوم بما كنتم تعتدون

نهاية

وهذا آخر ما دعاني اليه داعي الحق ، واملاه عليّ لسان الحقيقة ، ثم اضطرّني الى تسطيره الواجب . ولكن الحق يعوزه الناصر ، ولا بد للحقيقة من مساعد ، والواجب يستدعي من يقوم بادائه ، واولئك هم اخواني المسلمون . الا وان فيما خطّت يميني مباني ومعاني ومغازي ، فالاولى قشور ، والثانية لباب ، والثالثة هي روح العمل وقطب رحاه ، واليها استلفت انظار اخواني المسلمين عساهم اذا ماقرئوا المبنى وفقهوا المعنى ثم تدبّروا المغزى ان لا يدعوها نفخةً في واد ونفخةً في رماد فان فضل الاقوال بالاعمال ولولا العمل لما كان للقول مقدار . والى الله جلّ ثناؤه ابتهل ان يمنّ بالتوفيق للعمل كما منّ به في القول وان يجعل رائد كليهما الاخلاص بحرمة نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلّم تسليماً كثيراً ثم اسئله تقدست اسماؤه العناية والهداية واحمده حمداً كبيراً على البداءة والنهاية

آخر كلمة

اخطار واعتذار

بدأت بتأليف هذه الرسالة في «نابلس» من اعمال « بيروت» وانا قافل من « القدس » الشريف = ١٥ رجب ١٣٣٣ — وانهيتها — ٢ رمضان المبارك — في قرية « المزة » من افنية « دمشق » . ثم ضلّت مني وانا ذاهب الى « صوفر » من اعمال « لبنان »، مع اشياء أخر اهمها اربع رسائل لي في التركية . ثم استأنفت العمل في «حلب»[1] يوم الخميس — ٢٠ شوال — من السنة المذكورة وانا متجول في الانحاء السورية.

يَوماً بِحَزْوىَ وَيَوْماً بِالْعَقِيقِ وَبِا
لْمُذَيْبِ يَوْماً وَيَوْماً بِالْخُلَيْصَاء

ثم فرغت منها = ١ محرم ١٣٣٤ — في فروق دار الخلافة العلية . فكانت بنت التجوال وربيبة الشتات . ولربما كتبت فيها وللقلم حركة المرتعش من سير « العجلة » بين صعود وهبوط او اضطراب « القطار » بجوب القفار او اهتزاز «الباخرة » تمخر في عرض البحار .

---

(١) وهذا الذي اردت بقولي في خطبة الكتاب «وأُعيد سبكها وجرت ثانيةً فلكها»

بل ربما كتبت فيها وانا بمسمع من دوي المدافع وزفير النيران في سوح الوغى ومعترك الموت على ضفاف « الدردنيل »

فرجائي الى القراء الكرام اذا ما عثروا عَلَى زلة ان يغتفروها في جنب هذا الشتات يلتمسون لي من بين ثناياه عذراً ، لا سيما ومثل هذا التأليف في تنوع مباحثه وغرابة منواله يضطر المؤلف الى كثير من الادواة وما كنت املك منها غير القلم والدواة . هذا مع قلة البضاعة وشتات البال وشيء من النقص في العافية . نسئل الله من العافية تمامها ومن النعمة دوامها ونبتهل اليه عز شأنه ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم انه بعباده رؤوف رحيم

ختامها مسك

او

تقريظ شيخ الاسلام ومفتي الانام

ولما كنت في دار الخلافة العلية عرضتها عَلَى انظار من تشرفت باكسير انظاره ، واستنار ليلها بضوء نهاره ؛ الامام الهمام ، حبر الامة وحجة الاسلام ، بحر العلوم الطامي في المعقول والمنقول ، وغيثها الهامي في الفروع والاصول ، « رجل الدنيا والدين » ، المتدفق قلبه الطاهر غيرة وحمية على الاسلام والمسلمين ، اعتصاماً بالعروة الوثقى ،

والطريقة المثلى ، مولانا شيخ الاسلام ، ومفتي الانام ، صاحب الدولة والسماحة موسى كاظم افندي المعظم . نفع الله المسلمين بنواياه الطاهرة ، وعلومه الزاخرة ، واعماله الفاخرة ، وادام بدر سعوده في سماء وجوده سنداً للشريعة الغراء والملة السمحاء

نخط على ظهرها بقلمه الشريف ما هذه صورته :

بين الاسلام خلافتك درجة الهمبت ومرتبة فرسبتي وبو خلافتك آنجق دولت عليه عثمانيه ابله قيام وباسني ادله مقنعه سيله ايدانه دائر اولان بو اثرك مؤلفي موصل علماسندن السيد حبيب العبيدي افندي شايان تبريك وتلطيفدر

وهذا تعريبه :

ان مؤلف هذا الكتاب السيد حبيب افندي العبيدي من علماء الموصل حقيق بالتهنئة ، جدير بالمكافأة اذ اثبت فيه بالادلة المقنعة ما للخلافة من علو المكانة وفرط التقديس بين المسلمين وان هذه الخلافة قائمة بالدولة العلية العثمانية و باقية ببقائها

﴿ فهرس حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الاسلام ﴾

صحيفة	
١	خطبة الكتاب
٧	المقدمة : القطب الاول في سبب تأليف هذه الرسالة وبيان حال المسلمين اجمالاً
١١	القطب الثاني في الاتحاد الاسلامي
١٨	الفصل الاول في منشأ الخلافة الاسلامية ويشتمل على اربع تمهيدات ومقصود
١٨	التمهيد الاول في ان انبياء الله خلفاؤه في الارض
١٩	واما دور الايجاد
٢١	واما دور الارشاد
٢٣	واما دور العقاب والثواب
٢٥	التمهيد الثاني في اثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
٣٤	واما القرآن فهو اكبر معجزة
٤٦	التمهيد الثالث في تحقيق معنى النسخ وان شريعته (ص) ناسخة لما تقدمها من الشرايع .

صحيفة	
٥١	التمهيد الرابع في انه (ص) خاتم الأنبياء وان في شريعته الكفاءة لذلك
٥٣	الطريق الثاني
٥٥	اما الانجيل
٥٦	واما التوراة
٥٨	منها الاعتدال في التشريع
٦١	ومنها كونه بشيرا اكثر منه نذيرا
٦٣	ومنها مراعاته للزمان والمكان وما يلدانه من عرف وعادة
٦٦	تنبيه : لا يذهبن الوهم هنا الى ان الامر على اطلاقه
٦٩	تمحيص ومناقشة حساب
٧٣	ومنها : وهي الغاية التي تقصر دونها الغايات القاء الحبل على غارب الاجتهاد
٧٥	ومنها : تحكيم العقل وتأويل النقل اذا تعارضا .
٨٠	المقصود : في ان الخلافة الاسلامية خلف النبوة بل النبوات

صحيفة	
٨١	في وجوب الخلافة، اما انها واجبة
٨٢	فاما طريق العقل ، واما طريق الشرع
٨٣	واما السنة .
٨٤	واما الاجماع .
٨٥	تتمة : من الأئمة الذين نقلوا اجماع الامة حجة الاسلام الامام الغزالي
٨٧	ايضاح : ان اصول الدين التي يستند اليها امر الشريعة الاسلامية اربعة
٨٨	واما انها قبل كل واجب ديني
٩١	تنبيه
٩٣	تكملة في وجوب اطاعة اولي الامر
٩٥	تنبيهان: الاول في هذا الحديث الشريف الى آخره، الثاني ان ما ثبت وجوبه الى آخره
٩٦	الفصل الثاني : في ان الخلافة الاسلاميه قائمة بالدولة العثمانية
٩٦	التمهيد : تنعقد الامامة من وجهين
٩٨	البيان : من قرأ من التاريخ ما حفظ بين دفتيه الخ
١٠١	تنبيه : معنى قول العلماء من الفقهاء والمتكلمين الى آخره
١٠٤	الفصل الثالث : في ان دولة الخلافة الاسلاميه اذا زالت بزوال الدولة العثمانية فليس في الامكان قيام اخرى مكانها
١٠٥	اما الداخلي ونعني به الهيئة العامة من العالم الاسلامي
١٠٧	واما الخارجي : فانك تعلم ان مجاري السياسة الى آخره .
١١٠	تلخيص : اذا كانت العقبى من انقراض الدولة العثمانية
١١٥	الخاتمة : في ان الانكليز اشد الامم عداوة للاسلام والمسلمين
١٢١	الجناية الاولى سوء نيتها للعالم الاسلامي
١٢١	الجناية الثانية تظاهرها بالخير للمسلمين بينما تضمر لهم شراً
١٢١	الجناية الثالثة : قلبها للحقايق عندما تتمكن من العبث بعقول البسطاء

صحيفة

١٢٢ الجناية الرابعة : انها هي التي بددت شمل المسلمين وجعلتهم اشتاتاً

١٢٣ الجناية الخامسة: انها ربما تستحكم حلقات اسرها في طائفة من المسلمين

١٢٣ الجناية السادسة: سلبها الحقوق السياسية ممن في قبضة اسرها من المسلمين

١٢٣ الجناية السابعة : سلبها حقوقهم الاقتصادية

١٢٣ الجناية الثامنة : سلبها حقوقهم الاجتماعية

١٢٣ الجناية التاسعة : سلبها حقوقهم الادبية

١٢٤ الجناية العاشرة : انها بدلاً من التودد الى العالم الاسلامي

١٢٥ الجناية الحادية عشرة: مناوأتها العداء للخلافة المقدسة الاسلامية

صحيفة

١٢٦ الجناية الثانية عشرة : فرط عدائها للدين المحمدي والشريعة الغراء

١٢٧ الجناية الثالثة عشرة : دسها على الدين الاسلامي

١٢٨ الجناية الرابعة عشرة : فرط عدائها السياسي للهلال العثماني

١٣٠ ثلاث وجائب

١٣١ الحذر

١٣٢ الانتقام

١٣٢ تذكرة (في ان غير المسلم لا يلي امر المسلمين شرعاً

١٤٠ التاريخ

١٤٠ محكمة التاريخ الكبرى

١٥٣ نهاية

١٥٤ آخر كلمة اخطار واعتذار

١٥٥ ختامها مسك او تقريظ شيخ الاسلام ومفتي الانام

اصلاح خطأ

سطر	صحيفة	خطا	صواب
٨	٤	تأديبا	تأبيداً
٩	١٠	فليتمزج	فليمتزج
١	١٤	لاعياد	الاعياد
١٠	١٧	فضيلة	فظيعة
٨	١٩	طَينٍ	طِينٍ
١٢	١٩	لِآيَاتٍ	لَآيَاتٍ
١	٢٠	جمعاً	مجمعاً
٤	٢٠	بتّ	بثّ
٧	٢٨	قوياه	اقوياء
٩	٣٠	من الارض	من الارض ليخرجوك منها
١٠	٣٠	لا يلبثوا	لا يلبثون
١٨	٣٢	عيسى	وعيسى
١٥	٣٥	تساوي	تساوى
٧	٤٠	شعاره	اشعاره
١٠	٤٥	ن يعترف	ان يعترف

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
٥	٥٢	يا ايها النبي الخ	يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته
١٧	٥٢	وهذ	وهذا
١	٥٣	وخاتِم	وخاتَم
١٢	٥٦	العمالق	العمالقة
١٣	٥٨	لا يلتى	لا يلقي
٤	٦١	فاسقون	ساء ما يعملون
١	٦٢	طَوَلٍ	طِوَلٍ
٩	٦٢	المنبَّث	المنبثّ
١٨	٧٥	المحضورات	المحظورات
١٦	٨٧	ومن يتبع	ويتبع
٢	٨٨	واولى الامر	والى اولي الامر
١٢	٩٦	من ان تنعقد	من تنعقد
٩	١٢٦	ونفصيله	وتفصيله
١	١٤١	تم	ثم

Form Ref. No. G.17.

African and Eastern Trade Corporation, Limited.

(INCORPORATED IN ENGLAND.)

LONDON, MANCHESTER,
LIVERPOOL AND NEW YORK.

REGISTERED OFFICE:
ROYAL LIVER BUILDING, LIVERPOOL.

LONDON OFFICE:
AFRICA HOUSE,
KINGSWAY, W.C.2.

TELEGRAPHIC ADDRESSES:
"AFROASIAN, LONDON."
"ETHIOPE, BEYROUTH."

BEYROUTH,..... 192

SYRIA.

P.O. BOX 104.

This letter refers to
Department No.....
.....

African and Eastern Trade Corporation, Limited

BEYROUTH

P.O. Box 701

Arts

DATE DUE

JAFET LIBRARY
28 MAR 2001

297.09:U12hA:c.1
العبيدى ،محمد حبيب
حبل الاعتصام ووجوب الخلافة فى دي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01012240

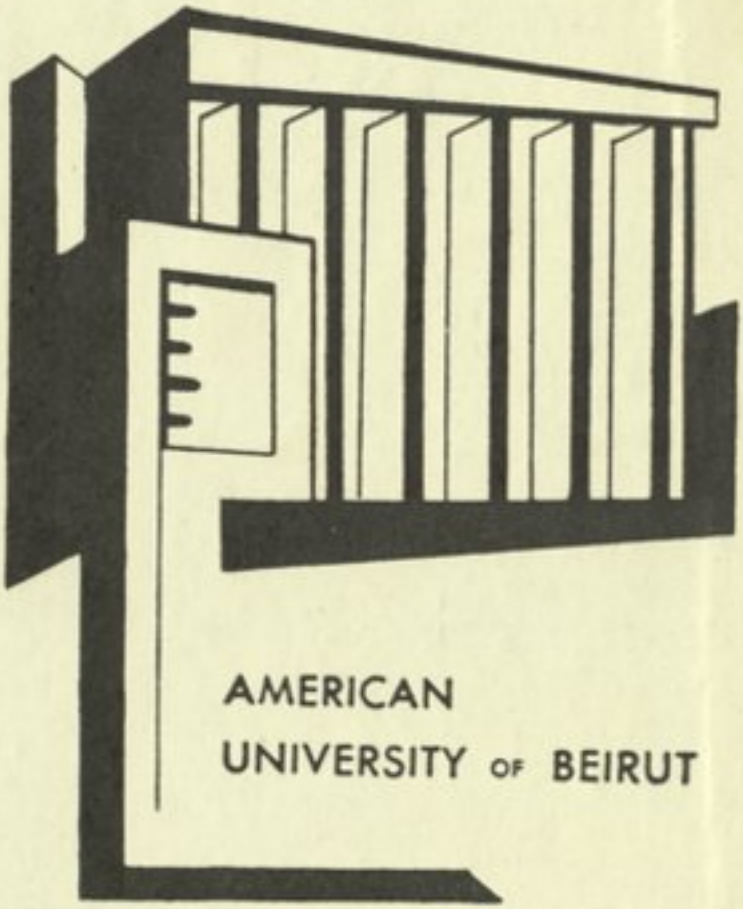

297.09
U12hA
c.1